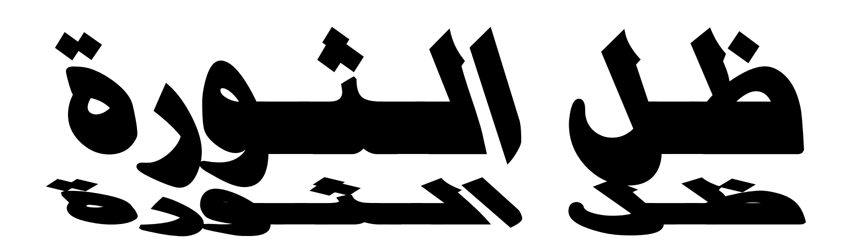

في
ظل الثورة
رواية
بقلم: محمد البخاري
1939-2025

في



رواية

بقلم: محمد البخاري

الطبعة الأولى – 2025م / 1446هـ

رقم الإيداع الدولي (ISBN):

للتواصل مع المؤلف:

الإيميل:aessibai@yahoo.com

الهاتف: +213.659.649.043

بسم الله الرحمن الرحیم

❖ الإهداء:

إلى روح والدي المجاهد:

مولاي عبد الكريم ولد شاش ـ رحمه الله ـ

الذي استلهمت هذه الرواية من مذكّراته،

توفي يوم 6 رمضان 1446 هـ الموافق 6 مارس 2025،

ويظل حيًّا في قلوبنا، وإن غاب عن عيوننا..

وأهديها أيضا إلى ابني العزيز: الدكتور عبد الكريم

بمناسبة عيد ميلاده الثامن والعشرين..

مقدمة: "ما قبل الظّل"

هـذه الروايـة مسـتلهمة مـن مـذكرات مجاهـد جزائـري حقيقـي، خـدم فـي صـفوف جـيش التحريـر الـوطني، ثـم واصـل فـي خدمـة الـوطن، فكـان مـن المجاهـدين المؤسسـين للجـيش الـوطني الشـعبي بعد الاسـتقلال إلـى أن تقاعـد منـه فـي أوائـل الثمانينـات، وقضـى مـا تبقى من عمره صامتًا... حتى بدأ يكتب.

دوّن مذكراتـه فـي سـنواته الأخيـرة، لا بنيـة النشـر، بـل ليفـرغ الصـندوق الثقيـل الـذي كـان يحملـه فـي صـدره..وليحـارب ثقافـة النسـيان والنُّكـران لفضـل الشـهداء والمجاهـدين مـن جيـل لـم يعـرف الاستعمار ولا ذاق طعم الذلّ الممزوج بالجوع والمرض والجهل..

ومـع أن هـذه الروايـة انطلقـت مـن تلـك الأوراق...فإنهـا لـم تلتـزم المسـار التـاريخي الحرفـي لهـا، ولـم تُسـمّ الشخصـيات أو الأماكن كما وردت في الواقع، بل أعادت تركيب الذاكرة..

وأخـذت مـن الحكايـة الشخصـية بوابـة لحكايـة جماعيـة، تكـرّرت فـي قـرى كثيـرة، ومـدن كثيـرة، وأزمنـة تتشـابه فـي الجزائـر المستعمَرة... ثم الجزائر المستقلة..

وكـلّ تشـابه فـي الأسـماء، الأشـخاص، أو المواقـع، هـو إمـا عَرَضـي أو رمـزي، لا يقصـد التوثيـق بـل التأويـل..واسـتخلاص العبر..

إنّ الرواية ليست توثيقًا لأحداث تاريخخية بعينها، بل محاولة أدبية لإحياء ذاكرة تُهدَّد بالنّسيان، ولمعالجة بعض الظواهر السلبية التي بَعُدت عن روح الثورة، وخالفت أهدافها الكبرى..

كان والد المؤلف – رحمه الله – من بين الذين ناضلوا ثم انسحبوا في الظل.

عاش مناضلا نزيهًا ومات صامتًا.. فحاولت هذه الرواية أن تُنطق بعض صمته، لا بتجسيده هو، بل بتجسيد جيل كامل اختُصر في صورة، ولم يُمنح صوته بعد.

رحم الله من قاتل ولم يتفاخر، ومن كتب لنا الأرض بدمه، ولم يطلب أن يُكتب اسمه على حجر.

المؤلف

محمد البخاري بن عبد الكريم

رياح الولادة

انْحنت فاطْمَه بنت لخضر فوق فراش الولادة المصنوع من صوف الغنم، كأنَّها تتهيّأ لطرد جبل صغير من رحمها. العرق يتلألأ من جبينها كما يتلألأ الضوء من فتيل قنديلٍ في مهب ريح. أنفاسها متقطعة، أقرب إلى نحيب صامت، وجسدها يئنُّ بصوت لا يسمعه أحد غيرها.. صوت قديم، خرج معها حين وُلدت، وها هو يعود في لحظة المخاض، كصوت لبُوءة حين تلد أول شبل لها بين شَعَف الجبال[1].

بدا الفراش تحتها ككتلة مشتعلة، يثور تارة، وينكمش أخرى.. اليد الخشنة لـ(امًّا مسعوده)[2] العجوز تدور على البطن كأنها تُمشِّط أرضًا مملوءة بالألغام.. كانت حركة يدها بطيئةً بُطء قطار متوجّه إلى الصحراء في ليلةٍ من ليالي الصيف العاصفة..

كان الزّمن يمرّ عبر أصابعها لا عبر عقارب الساعة.. أغمضت عينيها وهي تتمتم بالبسملة والمعوذتين وتقول:

- "هذه البطن حملت دمًا ساخنًا... لن يخرج منها إلا من يشبه (اسْبَع)"[3].

---

(1) معنى الشَّعَف : أطراف الجبال وظهورها وأعلاها ، الواحدة شعفة. ومنه حديث أبي سعيد الخدري–رضي الله عنه– أنه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:" يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شَعَف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن". رواه البخاري في مواضع من صحيحه.

(2)"امّا مسعودة": لفظة جزائرية تعني "الأم" أو تُستخدم للتوقير عند مناداة النساء الكبيرات في السن، مثل "الحاجة" أو "الخالة". واسم مسعودة متداول بين سكان الجنوب الجزائري.

(3) لفظ عامي جزائري يُقصد به "السبع" أي الأسد، ويُستخدم للدلالة على القوة والشجاعة.

خارج الغرفة: كان الصـــدى قادمًا من جهة الجنوب، دويّ مدفعية ثقيلة ارتطم بصـــخرةٍ في جبل عنتر[1]، فأطلقت الجدران المحيطة بالكوخ أنينًا حزينًا. قناديل الزيت، المعلقة على جدران الطين، اهتزت اهتزاز روح تحسّ بالموت قبل أن يدخل.

في زاوية الغرفة، جلســت القطّة البيضـــاء، وقد حدّقت نحو الباب بعينين متّسعتين، كما لو أنها ترى شيئًا لا يراه البشر.

جاءت الطلقة الثانية، أبعد من الأولى، لكنّ أثرها كان كمن يُدوّي في عمق العظام. أصدر القشّ على السقف خشخشة تشبه صوت عظام تُقلّب في تابوت قديم. لم تكن تلك اللّيلة عادية.

ريح الشّمال صفّرت في ممرات القرية الضيقة، وزفرت من النوافذ كسعال رجل عجوز يلفظ روحه.

شـــدّت فاطمة الحبل المتدلّي من الســـقف، المســـمّى "خيط الفرس"[2]، المصنوع من شَعَر حصان ذُبح في معركة قديمة. تقول الخرافة: "من يولد ويد أمّه تمسك شعر الفرس، يشرب من ماء الحرب قبل أن يشرب حليبها."

---

(1) يقع جبل عنتر إداريا بولاية بشـار، ضـمن سـلسـلة جبال الأطلس الصـحراوي الممتدة من المغرب الأقصى وهو أعلاها ارتفاعا (1960م) ومن أهم جبالها: جبل اقروز 1839 م ، وجبل بشار 1512م. ويوجد جبل باسمه في مدينة المشرية بولاية النعامة، يزيد علوه على 1721م، وهو الذي وقعت فيه معركة كبيرة، حيث قتل المجاهدون فيها حوالي أكثر من 15 جنديا من قوات الاحتلال الفرنسي وخسـائر في العتاد وانهزمت ماديا ومعنويا على ضـفاف الوادي بمحاذاة جبل عنتر الذي يبقى شاهدا إلى يومنا هذا على هذه الأحداث.

(2) خيط يُعلق من سقف الغرفة لتشدّه المرأة عند الولادة. يُصنع من شعر حصان – كما في الرواية – ويُعتقد شعبيًا أن له علاقة بالخرافات أو الشجاعة المرتبطة بالحرب.

بدأ الدّم يتسلّل على طول فخذها، دفئُه غريب، لا يشبه حرارة الجسد، بل حرارة الشهادة.

- "دَوري... دَوري يا (امَّا مسعوده)! يخرج أو أموت معه!"

- صرخت فاطمة، وقد انحنت أكثر حتى كاد ظهرها يلامس التراب.

انزلقت الرُّوح. لا، لم تكن ولادة فقط... كانت خروج طائرٍ من قفص لاهب.

الطفل خرج وهو يصرخ، صراخًا يشبه صوت صفّارة قطار يغادر محطة مهدّمة. الدم غمر الحافّة، وفاحت رائحة دخان دافئة، كما لو أن فاطمة أنجبت من فحم مشتعلة.

- "ولد... هو ولد..."

- تمتمت (امَّا مسعوده) وهي ترفع الجسد الصغير، عارٍ، كمن استيقظ من نوم في بطن الأرض.

لفّته بالغطاء الأزرق، لكن الطفل لم يتوقف عن الصراخ. عيناه كانتا مفتوحتين بالكامل، كمن رأى كلّ شيء من اللحظة الأولى. صرخته لم تكن بكاءً... بل احتجاجًا.

ولادته لم تكن دخولًا إلى العالم، بل غزوًا صامتًا، كما لو أن"الطّاهر" جاء لا ليعيش، بل ليوقظ الذّاكرة المدفونة تحت رماد القرية.

الرائحة الأولى التي ملأت الغرفة لم تكن رائحة دم... بل رائحة زيت الزيتون الطازج، كما لو أن الشّجرة العائلية قد نزفت بدلاً من الأم. كانت رائحةً دافئةً، حادةً، تتقاطع مع رائحة الكمّون المحترق وبخار الشيح والزّعتر، الذي

وُضع فوق صفائح من الطين لتطهير الجو من "أرواح الجناح الأسود"[1]، كما كانت تسميها (امَّا مسعوده).

صوت الطقطقة، طقطقة الكمّون، كان أشبه بنداء أرواح النسوة اللواتي وَلدن ومِتن في صمت. بين كل طقة وأخرى، كان الطفل يتقلّب، كما لو أن جسده يتذكّر ما لم يره.

بدت الغرفة كالدّاخل إلى كهف ذاكرة جماعية. الجدران تصرخ، والسقف يتنفس، والقنديل يُضيء بعينٍ واحدة.

ملمس الغطاء الأزرق كان خشنًا، كالسماء حين تُظلم فجأة. رُقعة من قماش يُستخدم لتغطية الموتى في الجبهة، أعادت جدّة فاطمة خياطته لتلفّ به أول حفيد."هذا القماش شهد موت أخيك يا فاطمة، فليشهد ولادة ابنك."

حين ضُغط الغطاء على جسد الطّاهر، انتفض. لم يكن ينشد الدفء، بل كان يتمرّد على اللَّفّ، كمن يرفض أن يُقيَّد من لحظته الأولى.

أنف فاطمة التقط رائحة شعره، فتمتمت:

– "ريح بارود... بارود وريح عنبَر"

دخل يوسف بن الطيب كأنَّه لم يُفاجأ بشيء. وجهه كالحجر، عيناه سوداوان، من النوع الذي لا يظهر فيه بريق، بل يظهر فيه جرح عميق..

ألقى نظرة على الطفل الملفوف، ثم رفع حاجبيه:

– يوسف: "كم وزنه يا (امَّا مسعوده)؟ "

---

(1) تعبير مجازي/أسطوري يُستخدم في الموروث الشعبي للإشارة إلى الأرواح الشريرة أو الحاضرة في لحظات الموت أو الولادة.

– (امَّا مســـعوده): (تحرّك الميزان النحاســـي المتدلّي)[1] "ثلاثة أرطال ونصف... خفيف"

– يوسف: (يقهقه ببطء): "خفيف كريشة طائر..."

– (امَّا مسعوده): "لكن الريشة قد تطير بعيدًا"

– يوســف: (ينظر إلى الطفل ببرود): "الخفيف لا يُدفن... يطير... هذا سيكون مصيره"

شجرة الزيتون العائلية في قلب الرمال

في الفسحة الضيّقة بين البيت وساحة النَّخيل، تقف شجرة الزيتون العائلية كأنَّها حارس أبكم نجا من مذبحة زمنٍ قديم. في هذه الأرض الصحراوية، حيث الرمال تنام فوق الرمال، لا تنمو شجرة زيتون صدفة. الشجرة هنا تُزرع مثل النسل، تُرعى مثل الابن الأكبر، وتُخاطب في الليالي كما يُخاطب الموتى.

ساقها سميك ومتعرّج، كأنَّما حُفر عليه تاريخ العائلة بلسان النار. ثلاث ثقوب قديمة تمزق الجذع، آثار رصاص بقي عالقًا من أيام تمرد الجدّ على الماريشال"بيجو"[2]، الذي أمر بقصف القرية ثلاث مرات حتى خضعت... خضوعًا مشوبًا بالانتظار.

(1) الميزان النحاسي المتدلّي: أداة بدائية للوزن، غالبًا ما تُعلق من سقف أو دعامة ويُستخدم فيها أثقال نحاسية لموازنة الكفة، ما زالت تُستخدم في بعض الأرياف.

(2) تولى الماريشال بيجو الحكم في الجزائر في 29 ديسمبر 1840 إلى 29 يونيو 1847. سلك خلال سنوات حكمه سياسة القهر والعنف والإبادة والتدمير والتهجير والنفي في إطار الحرب الشاملة التي مارسها تجاه الجزائريين.

. الأغصـــان لا تعلو كثيرًا، بل تمتد جانبًا كأذرع شــيخٍ يتشــبث بالأرض. بعض الأوراق رمادية باهتة، كأن غبار الزمن علق بها. وكلّما هبّت ريح من الجهة الغربية، سُمِع صـفيرٌ خفيف بين الأغصـان، أشـبه بأنين أمّ ترقُب عودة ولدٍ لم يعد.

خلف الشـجرة، ترتفع الجبال السـوداء الصـخرية، شـاهقة، صـامتة، تقف كقضاة في محكمة لا تنعقد إلا حين تخرج الروح من الجسد. جبل عنتر بالذات، يشبه جمجمة مقلوبة، وقمته تلمس الغيم لكن لا تشرب المطر.

قالت الجدة ذات يوم:

- "هذه الأرض لا تعطي الحياة إلا حين تدفن الموت معها."

الصرخة والغارة... ولادة من نار

انطلق من جهة الشمال صـوت صـفّارة إنذارٍ فرنسـية. كان الصـفير حادًا، ممزوجًا ببكاء معدني كأنّ شيئًا يحترق تحت الأرض.

في الداخل، صرخ الطفل"الطّاهر" للمرة الثانية. صرخة ليست إنسانية، بل كانت فيها نَغمة معدنية، كأنَّها تمرّ عبر أنبوب طويل من الحديد، كأن من يولد ليس طفلًا، بل قطعة من آلة غضبى. (امَّا مسعوده) توقفت، وأمالت رأسها:

- "سمعتُ هذا الصدى من قبل... حين وُلد أخو فاطمة قبل المجزرة"

الريح اخترقت الغرفة من خلال الشقوق، وأطفأت أحد قناديل الزيت. ظلال الجدران أصبحت أطول، كأنَّها تقوم لتشهد. شعرت فاطمة برجفة لم تكن بردًا... بل نبض أرضٍ تستيقظ. قال يوسف بعد أن عاد من الشجرة:

- "ابننا لم يبكِ... بل أعلن الحرب"

النيزك وسر السماء المفتوحة

عند الفجر، حين خفتت أنفاس الطفل وهدأ الصراخ، كانت السماء خالية من الغيم، لكنه خلوّ يحمل شيئًا مضمرًا. نيزك صغير اخترق السماء من الشرق، خلف الجبل، وترك أثرًا ناريًا لثانيتين. لم يره الجميع، لكن (امَّا مسعوده) وحدها كانت جالسة في العتبة، تمضغ المسواك[1]، وترفع رأسها للسماء.

همست:

- "كل خمسين سنة، تنزل نجمة فوق هذا الجبل... كل مرَّة يولد فيها من يُقلق الفرنسيين."

أغمضت عينيها، ومرّ شريط طويل في ذهنها: ولادة أبي"الطّاهر" في نفس التاريخ، صوت المدفع، دفن المشيمة، نزيف الأرض، وسقوط نجم في الجبل ذاته.

كل شيء يتكرر، لكن هذه المرة، هناك شيء أكبر من الولادة.

دخلت الغرفة وقالت وهي تنظر إلى الطفل:

- "من يولد تحت أخلاب النسر... لا يعرف القيد ولا الراحة"

أصبح السفحُ ملعباً للنسور ***فَاغضبي يا ذُرى الجبال وثوري

في الخارج، كانت الرمال تتحرك ببطء، ترسم موجات صغيرة حول أساسات الدار، كأن الأرض كلها تتنفّس طفلاً جديدًا.

---

(1) المسواك: هو عود كانت النّساء تتخذه لتطييب الأفواه وتزيين الشفاه. وفي المثل الشعبي الجزائري: "ايْمَدُّو لْمَسواك لَلْمْعوْجتْ لَحْناك" أو: "ما خصها غي المسواك معوجة لحناك".

جذور في الظلام

(الواقع عبر سمع الطفولة)

مشهد تعلّم السمع – "أقداح الخطر"

في الصباحات القاسية، حيث تلسع الريح وجوه الأطفال كما تلسع السياط جلود الفلاحين في الأسواق، كان الحاج بَنْسعيد، الجدّ الكفيف، يُجلس"الطّاهر" أمام حجر الرَّحى القديم. لم يكن هذا الحجر يُستخدم لطحن القمح، فقد جفّ القمح منذ عام المجاعة، بل أصبح مزارًا صامتًا لتعليم الخوف.

بين يديه، ستّة أقداح[1] نحاسية مختلفة الأحجام، مرصوصة على شكل نصف قمر [2]:

الأكبر يلمع كالمرآة المحروقة..[3]

الأصغر أغمق، كأن لونه علق بالرماد..

أما الوسطى، فتنطق عند الضرب، نغمةً تشبه خرير ماء مجروح[4].

– "اسمع يا طاهر... في بلدٍ يحكمه المستعمر، السمع هو السلاح الأول."

رفع"الحاج بَنْسعيد" العصا، وضرب أول قدح.

– "طنّ!"

---

(1) القدح: إناء صغير يُستخدم للشرب، لكن هنا استُخدم كأداة رمزية لتعليم السمع.

(2) يرمز إلى ترتيب طقوسي أو شبه مقدّس، يعكس الجانب الرمزي للمشهد.

(3) تعبير استعاري يدل على شيء يعكس صورة مشوّهة أو موجعة، يوحي بماضٍ مؤلم أو حقيقة مشوشة.

(4) خرير الماء: صوت جريان الماء، لكن وصفه بـ"المجروح" يوحي بأن الصوت فيه حزن.

- "هذا؟ "

- "دبابة..."

- "كيف عرفت؟ "

- "صوتها غليظ... ثقيل مثل الجرح"

ابتسم الجد، لكنه لم يكن ابتساماً... كان حنينًا مشوهًا. واصل الضرب:

الثاني: "خطوات جنود"

الثالث: "صفير الضباط"

الرابع: "صرخة امرأة عند التفتيش"

الخامس: "انفجار اللغم"

السادس: "صوت لا نعرفه بعد"

قال الجدّ وهو يرفع عصاه ببطء:

- "الفرنسيون يغيّرون أصواتهم كل موسم... مثل العقارب في بدايات الصيف"

كالعقربِ الساكنةِ في الرملِ، لا تدري**متى تغرسُ السمَّ في المارِّ بلا حذرِ

"قُدّاس الأصوات"

جلس"الطّاهر" على الأرض الطينية، عاري القدمين، يمدّ يده الصغيرة بتردد نحو الأقداح النحاسية التي رصها جده"الحاج بَنْسعيد" بعناية أشبه بترتيب التعاويذ. كان الضوء الخافت المتسلِّل من فتحة السقف يجعل كل قدح يومض كأنَّه كائنٌ حيٌّ ينتظر أن ينطق. رفع الجد عصاه القصبية، النحيلة كعظم

كتف، وضـرب القدح الأول ضـربة خفيفة فأصـدر صـوتًا غليظًا، مكتومًا، كأن شيئًا ثقيلًا يتنفس من تحت الأرض.

– "طنّ..." – "ما هذا؟ " سأل الجدّ بنبرته المتكسّرة.

– "الدبابة..." أجاب الطّاهر، وهو يبتلع ريقه كأنَّ الصوت اخترق حنجرته.

أومأ الجدُّ برأسـه، كأنَّه يعترف لصـوت قديم بالخضـوع. مرَّر إصـبعه على سـطح القدح ثم قال: "صـوته ثقيل، مثل حذاء من حديد يدوس جثة دجاجة". ضرب الثاني، فصدر صوت حاد، كصفير ناي معطوب[1]:

– "خطوات جنود... أربعة على الأقل"

– "كيف عرفت؟ "

– "لأن فيه إيقاعا، لكن بلا روح".

ضحك الجد، لكن ضحكته بدت كصوت صفارة قاطرة قادمة من بعيد.

–"برافو يا وليدي... الصوت مرآة العدو. والعدو الفرنسي، ما يضحك، لكن يُصدر ضجيجًا كثيرًا، وكلّه كذب."

عندما ضرب القدح الثالث، بدا الصوت هذه المرة كأنَّ ريحًا حادَّة انشطرت داخل أنبوب معدني. قال"الطّاهر" على الفور:

– "صـفارة الضـابط... الصـوت اللّي يجي قبل الجلد، وقبل ما يحبسـوا النفَس."

(1) الناي المعطوب: يشير إلى خلل أو كسر في الصوت، ويوحي بالألم أو الانقطاع.

كان الجو في الغرفة ثقيلًا، الهواء ساكنًا كأنَّه ينتظر جريمة وشيكة. أغمض العجوز عينيه وقال: "أنت تحفظ البلاد بأذنك، كما تحفظ الأم اسم ابنها في نومها، أو كما يحفظ الراعي المتمرّس أصوات نعاجه"

في تلك اللحظة، كانت الريح خارج الغرفة تدور في فناء البيت ككائن أعرج. صرير الباب الخلفي كان يتكرر، فتدقّ القلوب خوفًا من أن يكون هذا الصّرير مقدمة لاقتحام، لتفتيش، لصراخ... وربما دم.

لم يكن يسمع"الطّاهر" ما يضربه جده فحسب، بل كان يستمع إلى ما لا يُقال: وَقْعُ الحذاء، أنينُ الأغصان، انكسار الصوت، سكوت الجدّ قبل أن يلفظ الكلمة الأخيرة. كانت أذنه تتحول إلى مَصْيدةٍ للزمن.

وحين ضرب القدح الرابع، بدا الصوت مشوّشًا، فيه رجفة."هذا صوت أمّ... تصرخ في اللّيل لمّا يأخذون ابنها"، قالها الجدّ، وصوته بدا للمرة الأولى غير ثابت، كأنَّه تلعثم.

الطفل لم يفهم الألم تمامًا، لكنه شعر بشيء ساخن يتجمّع في صدره، كأنَّ الصوت طرق قلبه بدل أذنه..

"القدح السادس: الصَّمت القادم"

ظلّ القدح السادس في مكانه، لم يُمسّ، يلمع بهدوء في طرف الصف، مختلفًا عن بقية إخوته، كأن لونه يشبه اللّيل أكثر من النحاس. مدّ"الطّاهر" يده الصغيرة ليلمسه، لكن"الحاج بَنْسعيد" أوقفه بعصاه قبل أن تصل أصابعه إليه. قال بصوت منخفض، كما لو أنه يخشى أن يسمع أحد هذا الحديث:

– "هذا القدح... ما زال ينتظر اسمه."

– "يعني لا يصدر صوتًا؟ "

- "لا... بل صوته لم يُخلق بعد."

كان"الطّاهر" لا يزال في عامه الثالث، لم يكن يفرّق بين اســم (افْرانْسَــا) واسم ما يقضى في الخلاء إلا بتكرار اسميهما همسا مرات عدة في اليوم؛ لأنه لم يكن يجد بفطرته فرقًا واضحًا؛ لكنّه أدرك من نبرة جدّه أن في القدح السادس نبوءة مخفية، شــيء لا يُشــبه الخوف بل يفوقه. شــيء لم ينزل بعد من جبال الموت.

أضــاف الجد: "حين تسـمع صـوته يا طاهر، لا تحاول أن تُسـمّيه. فقط اختبئ... اختبئ حتى من نفسك. فهذا الصوت لن يُخرجك من الحياة، بل من المعنى."

ظلّ الصــبيّ ينظر إلى القدح كمن ينظر في عين شــيطان نائم، لا يريد إيقاظه، ولا يريد تركه دون نظرة.

من خلف الحائط، سُمِع صوت إطلاق نار. ثلاث طلقات، لا أكثر، لكنها كانت كافية لتمزيق هدوء المكان، كأن الريح توقفت عن التنفس. الجد لم يتحرّك، لم يهتز. بل قال ببرود مدروس:

- "هذه ليست طلقات طيش... هذه طلقات إعدام."

ثم رفع يده إلى السماء وقال:

- "الله وحده يعرف كم واحد يُقتل كل يوم دون أن يُدفن."

في الخارج، بدأت صورة فرنسا ترتسم في رأس الطّاهر: لم تكن عَلَمًا، ولا خريطة، بل حذاء طويل مدبّب يخطو على رؤوس الناس، كلما مرّ على قلب، ترك فيه ثقبًا أعمق من الموت.

صوت الجدّ هدأ، لكنه ظل يقول: "يا وُدِّي[1]، الفرنسي لا يسمع الأصوات. هو فقط يُطلقها."[2]

ثم أضاف، وهو ينفث من فمه نفسًا مشبعًا بالغبار:

– "لذلك يجب أن نكون نحن الصوت... لا نُصدره، بل نسمعه قبل أن يأتي."

كانت الجملة الأخيرة تتردد في رأس"الطّاهر" كأغنية سرية، لا يغنيها أحد، لكنها محفوظة في عظم أذنه.

"درس في الخوف المتوارث"

بعد انتهاء الدرس الصامت بين"الطّاهر" والأقداح، أعاد الجد"الحاج بَنْسعيد" ترتيبها في صندوق خشبي صغير، ثم أغلق عليه الغطاء كما يُغلق على سرّ دفين. كان للغطاء صوت حفيف حزين يشبه ضمّ تابوت طفل. مدّ العجوز يده، وتحسّس وجه حفيده، ثم قال:

– "اليوم علّمتك السمع، وغدًا أعلّمك الصَّمت ."

– "لكنني أريد أن أتكلم، جدي..."

– "الكلام حلو، لكن الحلو لا يعيش طويلاً تحت الاستعمار."

---

(1) لفظ مستعمل في العامية الجزائرية، يستعمل في التلطف بالمخاطب، وهو مأخوذة من الوُد، والمعنى: يا صاحب وُدّي أي حبّي.

(2) جملة رمزية تنقد الاستعمار، وتُظهره كقوة عمياء لا تستمع، بل تفرض العنف دون تفاعل إنساني.

أطرق"الطّاهر" رأسه، شعر أن جده لا يعلّمه كيف يحيا، بل يدرّبه كيف لا يموت قبل الأوان. هذه البلاد، كما فهمها"الطّاهر" في سنواته القليلة، لا تمنحك حق الطفولة إلا إن كنت أخرسًا، لا تضحك، لا تثرثر، لا تسأل عن الغائبين.

في تلك اللحظة، دوّى صراخ بعيد من جهة الحقل الغربي. صرخة امرأة، ليست عالية، لكنها حادة، مرّت كخنجر فوق قلوب السامعين. ارتعشت يد الطّاهر، نظر إلى جده، لكن العجوز لم يُحرّك ساكنًا. فقط قال:

– "لا تذهب إلى النافذة. إن رأيت، ستصبح شاهدًا. والشاهد في زمن الفرنسيين يُقتل أولاً."

طأطأ"الطّاهر" رأسه. تمنى لو أن سمعه انكسر، أن ينسى صوت القدح وصفير الضابط ووقع الخطوات. تمنّى أن يصير حجارة، أو خروفًا من أولئك الذين يُذبحون دون أن يُسألوا عن اسمهم.

في الخارج، كانت ريح المغرب تمرّ على النخيل، فيصدر عن السعف صوت يشبه حشرجة صدر مريض. كل شيء بدا مألوفًا عند"الطّاهر" إلا هذه الريح. قال لجده:

– "الريح غاضبة اليوم..."

فردّ الجد بنبرة كأنَّها تأتي من جيل سابق:

– "الريح تُخبرنا أن أحدًا سيفتقد قلبه اللّيلة..."

خاف الطّاهر، لكنه ظلّ ساكنًا، لأن الخوف في بيئته لم يكن شعورًا، بل واجبًا يوميًا، كغسل الوجه أو قراءة الفاتحة. في هذا البيت، الصَّمت لا يُكسر إلا للتذكّر أو للبكاء، وكلاهما جرم في نظر المستعمر.

ثم همس الجد، كمن يُلقي تعويذة على حجرٍ:

– "تذكر، يا طاهر... الصَّمت لا يعني الجبن، بل انتظار وقت الطعن."

"الصَّمت زينٌ للعاقل، وسترةٌ للجاهل."

وفي تلك اللّيلة، حين نام الطّاهر، حلم بأنه يمشي فوق سطح مغطّى بالأقداح، وكلما خطا فوق واحد منها، انطلق منه صوت جرحٍ قديم، حتى غطّت الأصوات جسده كالدخان.

"أصوات لا تُرى"

في اليوم التالي، قبيل الفجر، استيقظ"الطّاهر" على صوت مختلف عن أصوات اللّيل المعتادة. لم يكن صراخًا ولا صفيرًا، بل كان همسًا تحت الأرض، كما لو أن الرمال تتحدث بعضها إلى بعض. جلس في سريره المصنوع من الحصير، ومد أذنه نحو الحائط الطيني. لم يسمع شيئًا. لكن شيئًا فيه تحرّك، شعورٌ بأن المكان نفسه بدأ يتكلم.

دخل عليه الجد دون أن يُحدث صوتًا، كأنَّه شبَح تعوّد على المشي فوق خيبات منسية.

– "صاحي يا وليدي؟ "

– "الدار تتكلم..."

– "الدار تحفظ السرّ، ما تتكلمش."

جلس"الحاج بَنْسعيد" قربه، وسحب من جيبه صخرة صغيرة ملساء، مرّت عليها آلاف الأيدي، سلّمها له وقال:

– "هذه من الجبل اللي خلف النخيل. في كل مرَّة يسقط فيها شهيد، ترسل الأرض حجرًا منه إلى أقرب دار حزينة."

– "ولماذا تعطيني إياها؟ "

– "لأن الدار صارت تعرفك. لأنك سمعت ما لم يُقال."

كان الطفل ما يزال صغيرًا على أن يفهم أن الصَّمت يترك أثرًا في الطين، كما يتركه الدم، لكنّه أمسك بالحجر كما يُمسك بوسادة نوم، وشعر أن حرارة خفيفة تسري منه، كان الحجر نفسه يتنفّس.

قال الجد:

– "من الآن، كل صوت تسمعه خذ له مكانا في قلبك، لا في فمك. ومن تُخرجه من فمك، قد تُخرج معه حياتك."

في الخارج، كانت السماء رمادية، والشمس تتلكأ في الصعود، كأنَّها لا تريد أن تشهد يومًا آخر من القهر والمذلّة. صوت المؤذن الخافت من أقصى الحي بدا كأنَّه أذانٌ للمنكسرين، لا للعبادة، نبرة فيها خشوع، لكنها مكسورة كصوت أم تبكي دون دموع.

الطّاهر نظر إلى الأفق، وفجأة رأى سربًا من الغربان يطير فوق بيوت القرية، ثم يحطّ فجأة على سطح مركز الشرطة الفرنسي، وكأنَّها تبايع الصَّمت .

قال الجدّ وهو يتبع نظر حفيده:

– "حتى الطير يعرف من أين تُشتمّ رائحة الدم."

الطيرُ تعرفُ أينَ ينزفُ جُرحُنا، فالدمُ في أفقِ السماءِ منارُهَا

"المعلم الأول: الخوف"

منذ صـــباح ذلك اليوم، أصـــبح الجدّ "الحاج بنســـعيد" لا يُنادي"الطّاهر" باسمه، بل يناديه بـــ"السامع". حتى الأم فاطمة لاحظت التحوّل، وقالت لوالدها مازحة:

– "كأنَّك تسلمه لزاوية الطريقة، لا لطفولة عادية..."

فردّ الجد وهو يعصر فمه بنقطة سخرية:

– "الطفولة يا بنتي ترف، والترف حرام على من يولد بين الفرنسي والبئر."

في باحة البيت، جلس"الطّاهر" على حصـــــير من الخوص الباهت، بينما كانت أمه تقشر البصل اليابس بيد، وتطرد الذباب بيد أخرى. الجو ملبد بحرارة مشوّشة، شمس شاحبة، ونسيم لا ينعش، بل ينقل رائحة الحطب المعفن والطين المشبع برائحة الغائط. إنها رائحة المستعمرة: خليط من المهانة والعرق والتراب المُذلّ.

فجأة، مرّ في الحي جندي فرنسي على دراجة هوائية. لا أحد يعرف اسمه، لكنّ الجميع يُطلق عليه "الكلب الأصفر" بسبب لونه الشاحب وسلوكه النابح. وقف عند طرف الزقاق، حدّق بالبيوت كما لو كانت قِدرًا يغلي أمامه. ثم صرخ:

– "فاطمة! هل نضج الخبز أم لا تزالين تخبزين التراب؟ "

أرادت الردّ، لكن الجد "الحاج بنسعيد" أشار بيده:

– "إذا تحدّثتِ، سيكتب اسمك... وإذا صمتِ، سيموت من الغيظ."

– "وماذا إن مات؟ "

– "سنكسب صمتًا جديدًا."

الطفل"الطّاهر" راقب كل شيء بعينيه الواسعتين. لا حركة منه، لا كلمة، فقط نظرة جامدة كان داخله يسجّل كل لقطة كما تُسجّل الكاميرات الخفية أسرار المجرمين. ولأول مرة، شعر أن الصَّمت ليس خوفًا... بل فنّ من فنون الجهاد والمقاومة.

حين انصرف الجندي، همس الجدّ في أذنه:

– "رأيتَ؟ لم نصرخ. لم نشتم. ومع ذلك، انتصرنا."

لم يفهم الطفل تمامًا ما معنى النصر دون سلاح، دون صوت، لكنّه أحسَّ أن البيت انتعش قليلًا بعد رحيل الرجل، وكان الروح التي انحبست في الطين تنفست ثانية، بهدوء لا يسمعه إلا من عايش الظلم الذي يأتي على شكل سؤال ساخر.

وبينما كانت الشمس تزحف نحو الهاوية، التقط"الطّاهر" قدحًا نحاسيًا صغيرًا من الصندوق، وضربه ضربة خفيفة، لم يسمعها أحد غيره، ثم ابتسم.

"الغميضة في حقل الموت"

في عامه الرابع، بدأ"الطّاهر" يخرج برفقة أمه إلى الحقول المجاورة للقرية، ليس من أجل اللعب، بل لتعلّم فنّ الاختفاء. كانت فاطمة تُسمي ذلك "الغميضة"، لكنه لم يكن كما في القصص، حيث يركض الأطفال ويضحكون. هنا، الغميضة تعني أن تُخفي جسدك كأنَّك لست موجودًا، أن تصير ظلًا تحت ظل، حفنة من الرمل فوق الرمل، كومة قش لا تهمس.

في إحدى المرات، وقبل أن تبدأ اللعبة، نظرت إليه فاطمة نظرة لم يرها من قبل، فيها شيء من الحذر، وشيء من الذنب، وقالت له:

– "إذا رأيت طيف رجل بلون الرماد يقترب... لا تتحرك، حتى لو سمعت صوتي أناديك."

– "ولماذا؟ "

– "لأن صوتي أحيانًا لا يكون لي... قد يخرج من فم غيري."

– "من؟ "

– "العدو يتقن تقليد الأصوات يا بني، حتى صوت الأم."

كلماتها لم تُفسَّر في ذهن"الطّاهر" وقتها، لكنها حفرت خندقًا صغيرًا في قلبه، جعل كل نداء في حياته بعد ذلك مشكوكًا فيه.

بدأت الغميضة. ركضت فاطمة بين صفوف النباتات اليابسة، واختبأ"الطّاهر" خلف جذع نخلة محروقة. لا حراك. الصَّمت يملأ الرئتين. الريح تمر فوقه كأنَّها تمر فوق قبر مكشوف. ومن بعيد، سمع خطوات ثقيلة. ليست أمه. ليست اللعبة. إنها حذاء عسكري، يرفس التراب بلا سبب.

جاءت الدورية الفرنسية، خمسة رجال بعيون باردة، لا يبتسمون ولا يلتفتون. كلّ واحد منهم يشبه الآخر، كأنَّهم خرجوا من نفس القالب، أو ولدوا في رحم البندقية ذاتها.

مرّ أحدهم بجوار النخلة التي يختبئ خلفها الطّاهر. توقف لحظة، نظر حوله، ثم بصق على الأرض، وقال بالفرنسية ما لم يفهمه الطفل، لكنه شعر أن الكلمة كانت شتيمة موجهة للنخلة... ولمن خلفها.

بقي ساكنًا. حتى التنفس، جعله بطيئًا كما لو كان يتحسس الهواء قبل أن يبتلعه. تذكّر كلام أمه: "إذا تحركت، تموت." فبقي كتمثال حجري نُحت من خوف عمره أربعة أعوام.

عندما ابتعد الجنود، جاءت فاطمة تركض نحوه، لكنها لم تبتسم. نظرت إليه مطولًا وقالت:

- "تعلمت الدرس؟ "

- "أي درس؟ "

- "أن الوجود، هنا، تهمة."

ثم أمسكت يده، وسار الاثنان نحو البيت دون أن يتكلما. الشمس فوقهما، لكنها لا تدفئ، لأن الأرض التي تخاف، لا تعرف حرارة الشمس.

"الكتابة على ظهر الغنم"

في السنة الخامسة من عمره، بدأ"الطّاهر" نوعًا جديدًا من التعلم. لم تكن هناك كراسات ولا أقلام، فهذه تُصادر من البيوت كما تُصادر السكاكين، لكن الحيلة وُلدت من رحم الحاجة. أمه فاطمة، وهي تمشط صوف الأغنام في الزريبة القديمة، كانت تُعلّمه كيف يكتب بالفحم المهروس على ظهورها.

"الشاة لا تُفتش يا طاهر... والرسالة التي لا تُقرأ تُنجو صاحبها من السجن."

بهذه الكلمات بدأت أول حصة في الكتابة. الفحم يُطحن حتى يصير رمادًا ناعمًا، ثم يُبلل بنقطة ماء، ويُخط به على الصوف الأبيض رموزا غامضة:

دائرة صغيرة = الطريق آمن.

خط مائل = دورية في الجوار.

هلال مقلوب = الضابط في المدرسة.

X = لا تخرج من البيت.

كانت الأغنام تتحرك من الزريبة إلى الحقل كل صباح، ومعها تسير الأخبار مشيًا على أربع. لم يكن أحد يظن أن حيوانًا أخرسًا يحمل خريطة الحياة والموت.

في إحدى المرات، اقتربت دورية فرنسية من الراعي ""حكُّوم""، الذي كان يتسلم القطيع من فاطمة. طلبوا تفتيش الحمولة، وحين رأوا الغنم، ضحك أحدهم وقال لرفيقه بالفرنسية:

- "لماذا لا نعلّم هذه الكائنات القراءة؟ ربما تكون أخطر من أهلها."

ضحك الآخر، لكنه لم يعرف أن واحدة من تلك النعاج كانت تحمل فوق صوفها رسالة تقول: "قادمون في اللّيل".

بعد أن غادروا، عاد "حكُّوم" إلى البيت، مسح الرموز برماد الكانون[1]، وقال:

- "العين الفرنسية ترى كل شيء، إلا ما يُقال بالصوف."

الطّاهر، من جهته، كان يتقن رسم الرموز كما يتقن الطفل رسم الشمس والبيت في دفتر مدرسي، لكنه كان يعلم أن الشمس هنا لا تشرق على الجميع، وأن البيوت ليست آمنة.

---

(1) موقد النار المصنوع من الطين أو المعدن. يُستخدم عادةً لطهو الطعام أو التدفئة.

سأل أمه ذات ليلة:

- "لماذا لا أكتب الكلمات؟ "

- "لأن الحروف في زمن الفرنسي... جريمة مكتوبة."

أغمض"الطّاهر" عينيه، وتخيّل نفسه كتابًا يمشي على قدمين، لكن لا أحد يستطيع أن يفتحه دون أن يُصاب بالجنون.

"حين ابتلع الطفل الرصاصة"

في ظهيرة رمادية، كانت فيها الشمس لا تلد حرارة بل تترك ظلالًا حادة، خرج"الطّاهر" خلف البيت ليبحث عن شيء يلعب به. ليس هناك ألعاب، ولا خشب يصلح للنحت، ولا كرات قماشية كما عند أولاد المدن. الأرض جافة كوجه عجوز رفض الضحك، والحصى المتناثر تحت قدميه يُحدث طقطقة كان المكان يعترض على كل خطوة.

قرب الساقية اليابسة، شيء لامع خطف بصره. مشى نحوه، وتردّد قليلاً، ثم انحنى. كانت رصاصة، نحاسية، مغسولة بماء المطر، نقية كأنَّها خارجة من صدر بندقية للتو. التقطها كما تلتقط العصافير بذور القمح، وراح يقلبها بين أصابعه.

لم يعرف ما هي، ولا إلى أي شيء تنتمي. أراد فقط أن يجرّب ملمسها، لمعانها، طعمها ربما. أدخلها إلى فمه كمن يتذوّق قطعة حلوى، وبدأ يدحرجها على لسانه. لكن فجأة، زلّت، فانزلقت إلى حنجرته بسرعة الذهول.

ابتلعها.. ثم بدأ يختنق. لم يكن هنالك وقت للصراخ، فقط صوت الهواء وهو يتقطّع في صدره كحبل مشنقة. عيناه اتسعتا، وجهه احمرّ، ثم ازرقّ بسرعة

مرعبة. تحسّس عنقه بيديه الصغيرتين كمن يبحث عن مفتاح نجاة، لكن لا شيء يخرج.

الأرض تدور. الجدران تنحني. العالم يتحوّل إلى نفق مظلم يتقلص في داخله الهواء.

في الداخل، سُمعت حركات هستيرية. صرخت فاطمة، هرع الجد، ثم جاء الأب يوسف من الزريبة[1]يركض كوحش جريح. أمسك الطفل وقلبه على بطنه، ثم ضربه بقبضته أولاً. لا شيء. ضربه بجذع زيتونة يابس كان مُسنَدًا على الحائط.. طار جسد"الطّاهر" للأمام، وارتطم بالحائط الطيني.

ثم... انطلقت الرصاصة من فمه.

لم تصدر صوتًا، بل ارتدت إلى الحائط وسقطت على الأرض، متّسخة بريقًا، كأنَّها خرجت من جوف الشيطان. سقط"الطّاهر" أرضًا، يتنفس بصعوبة، وملامحه ملطخة بالدموع، والعرق، والرعب.

لم يقل الأب شيئًا. فقط حمل الرصاصة، نظر إليها طويلًا، ثم جلس بجانب الطفل، وأشار نحو مرآة مشروخة كانت معلقة على الحائط وقال:

– "انظر... هذا وجهك وهو يموت."

– "هكذا يموت الرِّجال في هذا البلد: بصمت، بلا جنازة، بلا اسم، وبلا سبب...

فقط لأنهم بلعوا شيئًا أكبر منهم."، "وجهك حين يموت" .

---

[1] الزريبة: ازْريبه هي الحظيرة المخصصة للماشية ونحوها.

جلس"الطّاهر" أرضًــا، يلهث كما تلهث حيوانات الغابة بعد أن تفلت من كماشـــة الصـــيّاد. كانت الرئة تتنفس ببطء، وكأنَّها تتعلم من جديد كيف تأخذ الهواء دون أن تسرق شيئًا.

الأب، يوسـف، لم يتحرّك كثيرًا. بقي يُحدّق في الرصـاصـة كأنَّها رسـالة سقطت من السماء، مكتوبة بلغة لا تُقرأ بالحروف، بل بالشعور.

رفع الرصاصة نحو الضوء، فتلألأت قليلًا، ثم قال:

– "هذه ليست شيئًا تلعب به يا طاهر... هذه أخوك الذي لم يُولد."

استدار الطفل إليه بدهشة.

– "أخوك... مات برصـــاصـــة، قبل أن ترى أنت النور. كنتُ أحمله في بطني كما أحمل اسـمه، ثم خرج من الدنيا دون صـرخة. الفرنسـي قتله، لكنه لم يترك دمًا... فقط ترك رصاصة مثل هذه مغروسة في جدار البيت."

اقترب يوسف من الجدار، وأشار إلى شق صغير، بالكاد يُرى، خلف الرفّ الطيني.

– "هذه الحفرة شاهدة... الحائط لم يصرخ، لكنه لم ينسَ."

ثم جلس أمام الطّاهر، ووضـــع المرآة المشـــروخة أمام وجهه، كانت المرآة نصـف دائرة، والنصـف الآخر محجوب بشـريط قماشـي ملطخ بالسـخام. قال لابنه:

– "انظر جيدًا. وجهك عندما تختنق، يصبح مثل وجه كل من يموت هنا: مشوه، خائف، غاضب، ولا يستطيع أن يقول شيئًا. نحن نموت بالصَّمت ، لأن من يصرخ... يُقتل مرتين."

صــمت الطفل، لا يزال جســده يرتجف بين فينة وأخرى، لكنّ عينيه كانتا تزدادان اتساعًا، كأنَّهما تلتقطان من الصورة ما لم يُقل. لم يرَ فقط وجهاً أزرق، بل رأى ظلّ عظم عالق في الحلق، ورأى أن الصَّـــمت ليس فقط لغة الجبناء، بل أيضًا لغة المدفونين أحياء.

وقف الأب، وناول ابنه الرصــاصـــة الملفوفة في خرقة قماشــية نظيفة. ثم قال:

– "احتفظ بها. هذه ليست لعبة، ولا ذكرى. هذه شهادة ميلادك الحقيقية."

– "لكنني وُلدت قبلها..."

– "لا يا وليدي. أنت وُلدت الآن. لأنك بلعت شيئًا لا يُبلع. الموت دخلك، ثم خرج... وأنت بقيت."

في تلك اللّيلة، كتب"الطّاهر" على الحائط بكفه المتسخة:

– "أنا الذي بلعت الحرب."

"الرصاصة التي بقيت في الذاكرة"

منذ ذلك اليوم، لم يعد"الطّاهر" يلهو كما يفعل باقي الصــــغار، إن وُجدوا أصـلاً. كان يمشـي في البيت كما تمشـي قطة تخرج من النار لتدخل في الماء، ببطء، بترقّب، بحذر لا يليق بطفل في عامه الخامس. أصبح يصـحو من النوم مرتين، مرَّة إذا سمع صوتًا حقيقيًا، ومرة إن سمع الصوت الذي لا يسمعه سواه — صوت الرصاصة داخل صدره، تتدحرج من ضلعٍ إلى ضلع.

كان يحتفظ بالرصــــاصـــة في جيبه طوال اليوم، يلفها في خرقة من قماش قديم — جزء من عباءة جدته عزيزة التي ماتت دون أن تتكلّم في عام المجاعة،

والتي قالوا إنها ماتت "من الصَّمت الزائد". وعندما يسأله أحدهم: "ما هذا؟ "، يقول دون تردد:

– "هذه أختي."

ضحك "حكُّوم"، الراعي، مرَّة وسأله: "هل عندك رصاصة أخت؟ "، فرد عليه الطفل، بعين واسعة كجبل في الظهيرة:

– "الرصاصات لا تلد، لكنها تُحيي وتُميت."

ومع مرور الأيام، بدأ"الطّاهر" يتحدث إلى الرصاصة. في المساء، حين يتكدّس الظلام على الحيطان، يخرجها من جيبه، يضعها في كفه، ويتأملها كمن يستنطق نبيًّا بلا لسان. كانت صماء، نعم، لكنها تحمل صدى من دخل ولم يخرج، من نُسي تحت التراب دون اسم.

في إحدى الليالي، رآه الأب يفعل ذلك، لكنه لم يوبخه. جلس بجانبه وقال:

– "حين يحتضن الرجل سلاحًا، يكون قاتلًا... لكن حين يحتضن الطفل رصاصة، يكون شاهدًا."

– "شاهد على ماذا؟ "

– "على العدل المذبوح في بلادك."

وبدأت تُراود"الطّاهر" كوابيس متكررة: يرى نفسه يفتح فمه، فلا تخرج الكلمات، بل رصاصات من نار. ويرى أن فمه يتحول إلى ماسورة بندقية، وأن كل من حوله يصيرون أهدافًا. كان يستيقظ مذعورًا، يضع يده على فمه، ويتأكد أنه لا يطلق النار، فقط يتنفس.

من يوم حادثة الرصاصة، صار صوته أخف. لم يعد يضحك. لم يعد يبكي أمام الناس. صار يشبه حجرًا صغيرًا موضوعًا على قارعة جبل. يراه الجميع، لكن لا أحد يعرف إن كان حيًا، أو فقط ينتظر شتاءً ليذوب.

"أنا الذي بلعت الحرب":

في إحدى زوايا البيت، تلك التي لا يدخلها الضوء إلا لمامًا، خصّص"الطّاهر" لنفسه ركنًا صغيرًا، سماه في سره "الكهف". لم يكن أكثر من قطعة حصير بالية وكسرة جدار تشبه ظهر ناقة، لكنه اعتبره ملاذه، أو ما يشبه الضريح الذي يحجّ إليه كل مساء دون أن يعرف لماذا. هنا، كان يُخرج الرصاصة من جيبه، يضعها أمامه، ويراقبها كما يُراقب الراهبُ نارًا صغيرة تتلوى في مبخرة الصَّمت .

لم تعد الرصاصة معدنًا مصقولًا، بل مرآة. كلما نظر إليها، رأى نفسه كما لم يره أحد. رأى أنه وُلد ليشهد، لا ليلعب. ليصمت، لا ليغني. ليحمل ذاكرة لا تخصه، لكنه مكلف بحملها كما يُكلف المجنون بحمل مفتاح مدينة محطمة.

أحيانًا، كان يضع الرصاصة على لسانه، لا ليلعب بها، بل ليُذَكّر حنجرته بأنها مجرحّة، لا تصلح للكلام الفارغ. وذات مرة، حين سمع ضحكة ابن الجيران، شعر بأن فمه ضيّق لا يتّسع للضحك، ليس لأنه لا يعرف كيف، بل لأن الرصاصة فيه لا تسمح بذلك. كانت جاثمة هناك، مثل قيد غير مرئي.

في المساء، وبينما كانت الأم تُعدّ خبز الشعير على حجر مسطح، سألها:

– "يمّا... هل الكلام يوجع؟ "

– "لماذا تسأل؟ "

– "لأن كل من يتكلم... يختفي."

– "ومن يسكت؟ "

– "يصير حجرًا."

– "وما الأفضل؟ "

– "أن تصبح صوتًا لا يسمعه إلا من يبحث عنه."

في اللّيل، حلم"الطّاهر" بحائط كبير مكتوب عليه اسـمه، لكن حين اقترب منه ليراه، انشقّ الجدار وخرجت منه آلاف الرصاصات تطير حوله، تهمس له بأصوات لا تُفهم. وفي المنتصف، رأى نفسه — طفلًا يحمل بندقية أطول من قامته، واقفًا فوق تلّ من الرمل، يصيح ولا أحد يسمعه.

استيقظ مفزوعًا، قبضته مشدودة على الرصاصة، ودمعة يتيمة معلقة في زاوية عينه. نظر إلى السقف، وقال بصوت خافت:

– "أنا لم أبتلعها... هي ابتلعتني."

ومنذ تلك اللّيلة، كتب على الجدار، بخط فحمي خشن، العبارة التي لم تُمحَ أبدًا:

– "أنا الذي بلعت الحرب."

"قرية الرصاصة الصامتة"

في تلك الأيام، لم يكن في القرية من لم يعرف أن"الطّاهر" "ابتلع رصاصة". لم تُروَ الحكاية تمامًا كما جرت، لكنها انتشرت في الأزقة مثل رائحة الخبز في بيت جائع. كل بيت أضاف تفصيلًا. بعضهم قال إنه ابتلعها وهو يلعب، وبعضهم قال إن الفرنسيين أجبروه. أما العجائز، فزادت على القصة نكهة أسطورية:

– "هذا الطفل، لا يُشبه أبناء اليوم. جسده بلع الحديد، ولم يمت... هذا يعني أن الحرب اختارته."

ومع الوقت، صار الصغار ينادونه سرًا: "ابن الرصاصة"، وكان الاسم لقب أو نبوءة أو علامة لا تُمحى. وحدها العجوز زليخة، التي فقدت ثلاثة أبناء في الجبل، قالت في حسرة:

– "أخشى أن تكون الرصاصة لم تخرج فعلاً، بل خبأت نفسها في قلبه... لتنفجر حين يكبر."

تحوّلت القرية نفسها إلى ما يشبه القصيدة الغامضة التي لا يُفك شفراتها إلا من عاش تحت الظلّ ذاته. الزقاق الضيّق الذي تفوح منه رائحة البول في الظهيرة، لم يكن مجرد ممر، بل كان معبرًا تتكرر فيه خطوات جنود الاستعمار خمس مرات في اليوم، كل مرَّة بزمن مختلف، كأنَّهم يؤذّنون للخوف.

الساحة الصغيرة التي تتوسط البيوت، كانت تعرف كيف تحفظ الأصوات. كل صرخة، كل ضحكة مبتورة، كل همسة عن مطاردة، كانت تنطبع على جدرانها كما تنطبع ملامح الموتى في الذاكرة.

أما المدرسة الفرنسية، التي لا يُقبل فيها إلا من أظهر خنوعًا، فقد رفضت تسجيل"الطّاهر" في سجلاتها. السبب الرسمي: "مشاغب"، لكن الجميع يعرف أن السبب الحقيقي هو أن اسمه صار مرتبطًا بما لا يُقال.

وحين رسم الطّاهر، ذات مرة، شجرة زيتون تتدلى منها بندقية، غضب المعلّم الفرنسي. مزق الورقة ورماه خارج الصف. في البيت، سألته أمه عن السبب، فابتسم وقال:

– "رسمت حكاية الجدّ على الورق... لكن المعلم يفضّل الأكاذيب."

ردّت الأم، وهي تمسح على رأسه:

– "في بلدنا، الحقيقة لا تُكتب في دفاتر المدارس... بل تُنقش في العظام."

وهكذا، صار "الطّاهر" يرى كل جدار، كل نخلة، كل جذع زيتون مشقوق، وكأنَّها صفحة من كتاب غير مكتوب، ينتظر من يقرأه من عينيه، لا من لسانه.

وكان هو — بعينيه الصامتتين — قد بدأ يقرأ.

"ذاكرة من طين وخرائط من خوف"

مع حلول الشتاء، بدأت الأرض تتشقّق من تحت أقدام الطّاهر، لا من الجفاف، بل من الألم الموروث. كل شقّ في التربة كان يبدو له كندبة في جسد عتيق، كان القرية بكاملها جسد واحد كبير، مطعون من كل الجهات، ومضمد بقليل من الصَّمت والتراب. كان يمشي في الأزقة، وعيناه لا تلتقطان الألوان كما تفعل عيون الأطفال. هو لا يرى الحيطان على أنها بياض أو صفرة، بل على أنها خرائط خفية. كل خدش على الجدار يشير إلى حادثة، كل علامة بالطباشير الأبيض خلفها خبر:

"هنا سقط عليّ برصاصة من قناص."

"هنا اختفت خديجة بعد التفتيش."

"هنا صرخت امرأة ثم صمتت للأبد."

تعلم "الطّاهر" أن يُترجم هذه العلامات. لم تكن حروفًا، لكنها أصدق من كل الكتب.

وفي زاوية قرب فرن الطين العام، اكتشف نقشًا صغيرًا محفورًا بإزميل صدئ:

"اللهم إني مغلوب فانتصر."

سأل أمه عن معناه، فقالت دون أن تنظر إليه:

– "كتبه رجل شاب... عذّبوه، وعلّقوه من قدميه أمام الملأ. كان يبتسم وهو يُجلد. هذا ما قاله لهم قبل أن يغيب عن القرية."

سكت الطّاهر. ثم في المساء، حين نامت أمه، تسلل إلى نفس الزاوية، ولمس النقش بأصابعه. أغلق عينيه، وهمس:

– "إن انتصر الله له، فلماذا لم يرجع؟ "

في كل بيت مرّ عليه، كانت رائحة واحدة تسبق الأنفاس: رائحة الطين الرطب الممزوج بالخوف. لم تكن الخشية من المطر، بل من الجنود الذين يجتاحون البيوت بحثًا عن ورقة، أو صورة، أو حتى فكرة.

وفي منتصف الحي، وقف طاهر أمام الحظيرة القديمة التي هُدم نصفها في الغارة الأخيرة، وقال:

– "هذه القرية لا تُبنى بالطوب... بل بالذكريات المحروقة."

الجدّ "الحاج بنسعيد" سمعه، فاقترب منه على عكّازه، وقال:

– "لهذا نعلّمك السمع يا طاهر... لأن الكلام لا يرمم الجدران."

أومأ الطفل برأسه، ونظر إلى السماء الرمادية التي لم تُمطر منذ أشهر، لكنه شعر بأنها تُثقل نفسها من الحزن، لا من الماء.

قال في نفسه:

– "إذا نزل المطر... سيغسل الدم أولًا، ثم يغمر الذاكرة."

"الرّسم الذي أرعب المعلم"

في صباح شاحب، حين كان الهواء محمّلًا برائحة السُّخام[1] أكثر من رائحة النَّدى، جلست فاطمة إلى جانب ابنها، وقامت بتمشيط شعره بأصابعها بدلًا من المِشط. أمسكت وجهه بين يديها، وقبّلته في جبينه، وقالت له:

– "اليوم سترسم في المدرسة، لكن تذّكر: لا ترسم شيئًا إلاّ من قلبك."

نظر إليها"الطّاهر" طويلًا، ثم قال:

– "لكن قلبي لا يعرف إلا الحرب."

– "إذن ارسم شجرة، ولا تقل إنّ جذورها مكسورة."

في القسم، طلب المعلّم الفرنسي من التلاميذ أن يرسموا "الحرية". لم يكن أحد يعرف معناها جيّدًا. رسم البعض طائرًا، وبعضهم رسم قمرًا. أما الطّاهر، فمدّ أصابعه الصغيرة في الطباشير الأسود، وبدأ يرسم شيئًا مختلفًا.

رسم شجرة زيتون تتدلى من أحد فروعها بندقية معقوفة، وأسفلها طفل يحمل سلّة فارغة، وأمه خلفه، تمسك بظلّه، لا بيده.

أنهى الرّسم بسرعة، لكنّه حين قدّمه للمعلم، ساد صمت كثيف. حدّق الرجل الفرنسي في الورقة كأنَّها صفعة. اقترب منه، مزّق الورقة ببطء، ثم قال:

– "ما هذا؟ !"

ردّ الطفل ببساطة:

– "هذه الحرية كما أعرفها."

---

[1] عندما لا يحترق الوقود بالكامل، فإنه يترك بقايا سوداء تسمى (السُّخام) ذات رائحة كريهة.

انفجر المعلم غضبًا، وصفعه على وجهه أمام الجميع، ثم صرخ:

– "أنت تحرّض! هذا الرسم خيانة!"

– "لكنكم طلبتم..."

– **"نحن نطلب الفنّ... لا الفتنة!"**

عاد"الطّاهر" إلى البيت، وعينه حمراء، والخدّ يحمل أثر يد غريبة. عندما رآه الأب، لم يسأل عن السبب. بل قال له فقط:

– "تعلّمت الآن ...! حتى خيالك مراقب؟ "

هزّ الطفل رأسه.

– "هل ستتوقف عن الرسم؟ "

– "لا."

ـــ "لكن لا ترسم لهم بعد الآن... ارسم على الجدران. على الرّمال. على ظهر النّعاج. ارسم في عينيك."

ثم ناوله قطعة من الفحم، وقال:

– "أقوى لوحاتنا نرسمها على أشياء تمحى سريعًا."

وفي اللّيل، بينما كانت الريح تدق النوافذ برفق، جلس"الطّاهر" قرب الحائط الطيني، ورسم من جديد.

- رسم وجه أمه وهي تبكي دون صوت.
- رسم قدم جندي تدهس بذرة قمح.
- رسم نفسه... وفي فمه رصاصة.

"الحروف الممنوعة تُكتب على الهواء"

بعد حادثة الصفعة، لم يعد"الطّاهر" يذهب إلى المدرسة الفرنسية. لم يُفصَل رسميًا، بل صار وجوده هناك ثقيلًا كالرطوبة في جُبٍّ مغلق. المعلم لا ينظر إليه، التلاميذ يتهامسون من حوله، ويبدو أن الجميع اتفقوا على شيء واحد: هذا الطفل لا يشبهنا، هذا الطفل "مشروع مشكل".

لكن"الطّاهر" لم يكن بحاجة إلى مدرسة. كانت الجدران تكفيه، والأرض تكفيه، والأشياء المكسورة من حوله — كلّها — أصبحت أدوات تدوين سري.

في إحدى الليالي، قرر الجدّ "الحاج بنسعيد" أن يُعرّف"الطّاهر" على أرشيف خاص، لا يحمله إلا من عاش ما يكفي من الوجع ليعرف أن كل شيء في هذه البلاد قابلٌ للكتابة.

سحبه نحو الزاوية المعتمة من غرفة الطين. مدّ يده إلى صندوق نحاسي، قديم، لا مفتاح له، فقط سلسلة ملتفّة حوله كأفعى نائمة. فتحه العجوز ببطء، وقال:

– "هنا نحفظ الأصوات التي لم تجد لها حناجر."

في الداخل، كانت هناك ستة أقداح — نعم، نفس الأقداح التي استخدمها منذ سنوات في تعليم السمع — لكنها الآن كانت منقوشة. كل قدح محفور عليه رمز مختلف:

قدح الدبابة يحمل نقش طلقة تمزّق نخلة.

قدح الضابط يحمل سهمًا مكسورًا يعبر عينًا مفتوحة.

قدح "الصوت السادس" لم يحمل سوى دائرة صغيرة بداخلها نقطة، تشبه العين، أو فمًا يبتلع شيئًا لا يُرى.

قال الجد:

– "كل عائلة لها صندوق، لكن أغلبها يُدفن مع أصحابه. نحن لم ندفنه، لأننا ننتظر من يسمع."

أخذ"الطّاهر" أحد الأقداح وقرّبه من أذنه. لم يصدر منه صوت، لكنه أقسم أنه سمع أنينًا دافئًا يشبه لهاث أمّ تلد في صمت.

– "هل سمعت؟ "

– "نعم..."

– "وماذا قال لك؟ "

– "قال لي: لا تنسَني."

في اليوم التالي، جلس"الطّاهر" في فناء البيت. حمل عودًا محترق الرأس من حطب الأمس، وراح يخط به على الأرض:

– "ليس كل شيء يُكتب بالحبر... بعض الكلمات لا تظهر إلا بالفحم.

مرّت أمه، نظرت إلى الخطوط، وقالت:

– "ستكبر وتكتب كتابًا، أليس كذلك؟ "

– "نعم."

– "وعن ماذا سيكون؟ "

– "عن الأصوات التي لم يكتبها أحد."

ابتسمت فاطمة، لكنها نظرت إلى السماء، وهمست:

– "خوفي أن صوتك لن يُسمع، إلا إذا خرج من فم الموت نفسه."

"خريطة الصوت تحت الطين"

في صـــباح جافّ، عندما كان الهواء في القرية يبدو مثل صـــفحة ورقية مصفرّة، أخذ الجد "الحاج بنسعيد" حفيده"الطّاهر" إلى السطح الطيني للبيت. لم تكن تلك عادة، فالســطوح عند الفلاحين ليســت للنزهة، بل للنجاة. هي ملاذ يُراقب منه الجنود وهم يقتربون، أو تُعلّق فوقه الأقمشــة إذا مات أحد ســرًا، لأن النعش أحيانًا لا يسمح له بالمرور من الأرض.

جلس العجوز، ومدّ أمامه قطعة من جلد غزال قديم، باهتة اللون، مشــقّقة الأطراف، وقال:

– "هذه ليست قطعة جلد، بل خريطة."

– "خريطة ماذا؟ "

– "خريطة للأماكن التي لا تراها العيون، ولكن تحفظها الآذان."

على الجلد، كانت هناك علامات غريبة، غير واضـــحة لمن لا يعرف: دوائر متشابكة، خطوط مائلة، نقاط سوداء صغيرة كعيون ميتة. أشار الجد إلى بعضها:

هذه النقطة الســوداء الكبيرة: "مكان اختبأ فيه رجلٌ 14 يومًا بعد أن قتل ضابطًا."

هذا الخط المتعرج: "ممرّ في جذع نخلة، يتسع لطفل يحمل رسالة."

وهذا المربع: "مدخل الكهف الذي سـنذهب إليه لاحقًا، إن كُتب لك أن تتعلّم ما لا يُكتب."

ابتلع"الطّاهر" ريقه. لم يكن يفهم تمامًا، لكنه شـعر أن هذه الخريطة لا تنتمي للعالم الذي عرفه، بل إلى شيء أعمق، شيء مخفيّ مثل الهمس.

قال الجد، وهو يُسلّمه قطعة فحم:

– "إذا سـقطنا، لا تسـقط هذه. إن متّ، عليك أن ترسـمها من جديد، ولو على الرمل، ولو على صدرك، ولو على الهواء."

في تلك اللّيلة، سمع"الطّاهر" أمه فاطمة تتحدث إلى امرأة جارة في الظلمة:

– "ابني تغيّر... صوته صار يُفكّر قبل أن يخرج."

– "وهل تخافين عليه؟ "

– "أخاف أن يتحول صوته إلى خريطة، فيسير فيه أحدٌ لا يعرف الطريق.

قالت الأخرى:

– "لا طريق في هذا البلد إلا ويقود إلى قبر."

لكن الطّاهر، الذي كان يتظاهر بالنوم، ابتسم دون أن يُرى، وهمس:

– "ربما أنا القبر... وربما أنا الخروج منه."

"جذور تنمو في الظلام"

في فجر بلا أذان، وبينما كانت قناديل الزيت قد انطفأت منذ ســـاعات، جلس"الطّاهر" أمام الجدار الذي رســـم عليه بالأمس، وأخذ يتأمل الخطوط. لم تكن رسوماته تشبه تلك التي في دفاتر المدارس، بل كانت تشبه أصواتًا تُرى. كل خط فيها ينطق بشـــيء: ظلّ أم، جدار انهار، قدم جندي، أو رصـــاصـــة تنتظر.

كان وجهه هادئًا، لكن داخله يضج. طفل في الخامسة، لكن عينيه تحملان شيئًا لا يُدرّس: صورة الذاكرة الأولى حين تخرج من رحم الطفولة وتمشي وحدها في الظلام.

دخل الجد الحاج بَنْسعيد، يحمل كأسًا من اللبن الرائب. جلس بجانبه، وقد أتعبه الصعود، وقال له:

– "أرأيتَ يا وليدي؟ كل ما تعلمته الآن، ليس درسًا... بل جذرًا."

– "جذر؟ "

– "نعم... الجذر لا يُرى، لكنه يُمسك الأرض من قلبها."

صمت الطفل، ثم همس:

– "لكن الجذور تنمو في الظلام، أليس كذلك؟ "

– "بالضـــبط. ولهذا لا نراك تضـــحك. لأن النور ليس لك بعد... أنت ما زلت تحت الأرض."

في الخارج، بدأ الديك يصـــيح، لكن صـــوته بدا مرهقًا. كان الحيوان نفســـه أدرك أن الفجر ليس بـدايـة، بـل تكرار لأمس لم ينتـهِ بعد. الريح تمرّ بـاردة،

تصـفع وجه الطّاهر، لكنه لا يتحرك. الشـمس تتهيأ للصـعود، لكنها تفعل ذلك ببطء، كأنَّها تخشــى النظر إلى هذه الأرض التي تُنجب الصَّـمت مثلما تُنجب القمح.

نهض الطّاهر، وتناول قطعة الفحم. لم يرســـم شـــيئًا هذه المرة، بل كتب جملة واحدة على الجدار، بخطٍ مائل غير متناسق، لكنه مليء بالعزم:

– "أنا هو الجذر... وسأنمو في الظلام حتى يُولد النور منّي."

التفت إلى الجد وقال:

– "هل سأخرج يومًا من تحت الأرض؟ "

فردّ العجوز، ونبرته أشبه بندبة صوت:

– "حين يسمعك من لا يملك أذنين."

وينطقُ عني الجهلُ وهو أصمُّ *** ويسمعُ قولي من به صممُ

وبهذا، خرج"الطّـاهر" من مرحلـة، لا إلى النور، بـل إلى أعمق نقطـة في العتمة، حيث تبدأ الرحلة الحقيقية لا مع الأصوات فقط، بل مع المعنى نفسه.

مدرسة الكهف

"الباب الذي لا يُفتح إلا بالصَّمت "

حين بلغ"الطّاهر" سنّ السادسة، أخذ بيده رجل يُدعى اسّي مُحَنْد[1]، لا أحد يعرف من أين جاء، ولا إلى أي جهة ينتمي. رجل طويل، نحيل كان عظامه من عروق الزيتون اليابسة، وعيناه تحملان سكونًا موحشًا، كأنَّهما رأتا العالم يحترق مرات، ولم تجدا بعد ما يستحقّ الدهشة.

لم يكن لسي مُحَنْد بيت، ولا نسب معروف، لكنه كان يأتي إلى القرية كل خميس، في توقيت لا يراه فيه الفرنسيون، يدخل من الممرات الجبلية، ويغيب كما يأتي: بصمت، كريحٍ تهبّ على نار من تحت الرماد.

في صباح خريفيّ غائم، أمسك"الطّاهر" بيد الرجل، وسارا معًا عبر السهل الرمليّ باتجاه الجبل. كان الهواء كالحليب الباهت، والشمس مستحية خلف ستارة من الغبار. لم يتكلّما. كل خطوة كانت تُشبه وعودًا بلا كلمات.

قال"اسّي مُحَنْد" بعد مسافة طويلة:

– "أنت الآن جاهزٌ للباب الذي لا يُفتح إلا بالصَّمت ."

– "أين هو؟ "

– "في بطن الجبل... حيث تختبئ الكلمات منذ ألف عام."

---

[1] اسي محند: من الأسماء المشتهرة في اللهجة الأمازيغية، "اسي": مختصر كلمة "السيد"، و"محند" أي: "محمد" يبدلون الميم بالنون حتى لايأتون باسم محمد الصريح توقيرا للنبي ﷺ، فإن اضطر أحدهم أن يسب غيره أو يسخر منه؛ فلايذكر اسم محمد بسوء أدبا مع النبي ﷺ وتعظيما له.

– "وهل سأقرأ؟ "

– "لا... ستُنقش أنت."

وصـل الاثنان إلى قاعدة جبلٍ صـخريّ، أسـود اللون، مائل كظهر عجوزٍ يهمّ بالسقوط. هناك، تحت صخرة ضخمة على شكل جمل رابض، كانت فتحة ضيقة لا تكاد تُرى. خلع"اسّي مُحَنْد" غطاءها الحجريّ، فانطلقت رائحة الأرض القديمة، مزيج من طين بكر، دم قديم، دخان محفوظ، ورطوبة زمنٍ لم يعد يُحسب بالتقويم.

انحنى الطّاهر، ودخل الزحف.

كان النور يُودّع عنقه، كلما توغّل، حتى لم يبقَ سـوى عتمة تُعلّمك أن تكون بصيرًا دون عين.

وفجأة... وجد نفسه في مكان أوسع، صامت، لا يُشبه المغارات التي في الحكايات، ولا الحفر التي تحت الأرض. كانت الجدران مكتوبة، لا بالحبر، بل بنقوش محفورة بأظافر من سبقوه.

قال"اسّي مُحَنْد"، وصوته فيه صدى لا يشبه البشر:

– "هنا تبدأ المدرسـة. كل من دخل قبلك مات قبلك... أو عاد إلى البيت من غير لسان."

في وسط الكهف، جلس خمسة عشر تلميذًا، أعمارهم بين السادسة والثانية عشـرة. لم يكن بينهم ضـجيج، بل كانوا أشـبه بتماثيل من تراب. في الزاوية، صندوق خشبيّ صغير، وُضع فوق حصير من سعف النخيل، فوقه:

13 لوح طيني محفور من صخور الوادي.

7 أقلام من عظام الطيور.

قارورة حبر مصنوعة من سناج قناديل الزيت.

اقترب"الطّاهر" من اللوح، جلس، ثم سأل بصوتٍ أقرب إلى الحلم:

– "هل هذا الكتاب؟ "

أجابه"اسّي مُحَنْد":

– "لا... هذا جلدك. ستكتبه أولًا... ثم يكتبك."

"الألواح التي تنبض"

جلس"الطّاهر" أمام لوحه الطيني كما يجلس الناس أمام قبور أحبتهم في اليوم الأول من الدفن. لم يكن اللوح نظيفًا، بل كان مليئًا بخدوش، حفر صغيرة، آثار أظافر، كان أحدهم قبله حاول أن يصرخ فيه، أو يكتب داخله ما لم يسعفه الوقت لينهِ.

على سطح اللوح، وُجدت بقايا رماد عالق، ربما كان أثرًا لحرفٍ محته أصابع عجلى قبل الغارة الأخيرة، أو بصمة لكفّ طفلٍ فُقئت عينه في محاولة الهرب من الثكنة. لا أحد يعرف من كتب هنا، لكن الجميع يعلم أن هذه الألواح لا تُمحى، بل تُغطي فقط... كأنَّك تكتب فوق قلبٍ لم يُشفَ بعد.

سي مُحَنْد وقف خلفه، لا يمدّ يده، لا يوجّه. فقط يراقب. صوته جاء خافتًا، مشوبًا بجمرٍ خفي:

– "لا تكتب ما يُملى عليك... اكتب ما في صدرك ولا تعرف كيف تنطقه."

مسـك"الطّاهر" قلم العظم، كانت نهايته مبريّة، لكنها خشـنة، لا تنزلق، بل تخدش الطين كما تُخدش الذاكرة.

مررها على سـطح اللوح، فخرج صـوت خافت، أشـبه بصـوت ورقة تجفّ تحت شمس حارقة.

- "هل أكتب اسمي؟ "

- "اسمك محفوظ في دمك. اكتب الخوف."

- "وكيف يُكتب الخوف؟ "

- "بيدٍ ترتجف، وعين لا تغمض."

حول الطّاهر، كان بقية التلاميذ منغمســين في الألواح. أحدهم رســم يدًا مربوطة بحبل. آخر كتب كلمة واحدة فقط: "أين؟ "، بينما الثالث حفر شـــكل طائرة تقصــف نخلة، والنخلة تبكي. لم يكن ما يُكتب هنا يُشــبِه الكتابات التي تُدرّس في المدارس الفرنسية، بل أشبه بـــ حكايات قبيلة من الأشباح تحاول أن تقول إنها ما زالت على قيد الحياة.

ســي مُحَنْد مرّ من خلفهم، يتفحّص، لا يُعقّب، فقط يتوقف أحيانًا، ينظر نظرة طويلة، ثم يواصل. وعندما وصل إلى الطّاهر، نظر إلى اللوح فقرأ:

لم يقل شيئًا. فقط وضع يده على رأس الطّاهر، وهمس:

- "هنا... ستكون أولى الحروف التي تخلع الجلد."

في الزاوية، كان هناك صـــبي أكبر ســـنًّا، يُدعى حمزة بن الديب، يُلقّب بـ"الناسخ"، لأنه كان الوحيد المسموح له بنقل ما يُكتب إلى "الدفتر الكبير" الذي لا يُفتح إلا في نهاية كل شهر قمر.

سأله"الطّاهر" ذات يوم:

- "ما الدفتر الكبير؟ "

أجابه دون أن يرفع رأسه:

- "هو الكتاب الذي لن يُقرأ إلا عندما تتحرّر الأرض... أو تموت كل الأصوات."

في الكهف، يصبح القرآن ليس كتابًا منزّلًا فقط، بل صرخةٌ مكتومة مكتوبة بلغة الغيب والدم.

"الآية التي تسكن في الصدر"

في اليوم الثالث لدخوله مدرسة الكهف، جلس"الطّاهر" في الركن الأيسر من الحلقة، حيث لا يصل الضوء إلا كخيط مهتزّ يشبه سيفًا قديمًا مسلولًا من رحم الظلمة. أمامه لوحه الطيني، وبجانبه قطعة صغيرة من الفحم الحجريّ استُخرجت من الكأنُّون، موضوعة في صحن من طين مشقّق.

جلس"اسّي مُحَنْد" في صدر الكهف، يُمسك بيده جلدًا بنيًا سميكًا، عليه آيات مكتوبة بخط اليد، بلونٍ أسودٍ باهت، وفي أطراف الصفحة بقع داكنة، لا أحد يعرف أهي من العرق أم الدم.

رفع صوته ببطء، صوته كان يأتي من البعيد، كما لو أن الزمن نفسه يقرأ عن طريقه:

- "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ."

ثم صمت.

أعادها، بنبرة أبطأ، أعمق، وكان الحرف نفسه يمشي على الأرض:

– "خَلَقَ الْإِنسَــانَ مِنْ عَلَقٍ." لم تكن هذه الآية الجديدة على الطّاهر، بل كانت جدته "عزيزة" تُرَدّدها كل صــباح قبل أن تفتح النافذة وتخاطب الســماء. لكنها اليوم، هنا في الكهف، بدت مختلفة. الحروف التي ســـمعها كانت ثقيلة كأســمال الشــهيد، لا خفيفة كالنســيم. كل حرف يدخل أذنه ويطرق على قلبه كمطرقة حداد فوق الحديد.

همس في نفسه:

– "الخلق من علق... يعني أننا وُلدنا من دم، لا من حليب. من جرح، لا من نعمة."

رفع"اسّي مُحَنْد" رأسه، ونظر إلى التلاميذ:

– "من لا يحفظ القرآن، لا يعرف سرّه. ومن لا يعرف سرّه، لا يستطيع أن يُنزل الآية على الظالم."

ثم أضاف بصوت رجّف فيه الكهف:

– "الفرنســيون لا يخافون البندقية، بل يخافون الفاتحة إذا خرجت من قلبٍ يعرف لماذا نزلت."

كان"الطّاهر" يحفظ بعض الســـور، لكن هذه المرة، حين بدأ يرتّل، خرج صــوته مختلفًا. لم يكن صــوت طفلٍ يقلّد معلّمًا، بل صــوتٌ يأتي من أســفل صدره، كان الآيات تنفلت من لحم ذاكرته لا من لسانه.

قرأ ببطء:

– "وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ."

ارتجف صوته في نهاية الآية. شعر فجأة أن الموؤودة ليست تلك الطفلة التي يتحدث عنها القرآن، بل هي القرية كلّها... أمه... جدته... جده الذي كُسرت عصاه ذات تفتيش... وحتى صوته هو.

بعد أن انتهى، اقترب"اسّي مُحَنْد"، ووضع يده على صدره، وقال:

– "الآيات ليست دروسًا... هي أبواب. وبعض القلوب مفاتيح نادرة." لقد قالت الصوفية: " القلوب خزائن، ومفاتيحها السؤال"

وقال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

النـاسُ من جهـة التمثـالِ أكفـاءُ — أبـوهـم آدمٌ، والأمُّ حـوّاءُ

فإن يكن لهم من أصلِهم شرفٌ — يفـاخرون بـه، فـالطينُ والمـاءُ

مـا الفخرُ إلا لأهلِ العلمِ إنهمُ — على الهدى لمن استهدى أدلاءُ

وقَدرُ كلّ امرئٍ ما كان يُحسنُهُ — والجـاهلونَ لأهـلِ العلمِ أعـداءُ

ومنذ ذلك اليوم، صار"الطّاهر" لا يردّد القرآن كما كان يفعل في البيت، بل يقرأه كما يقرأ الطبيب الجراح في إحدى مستشفيات غزة الصورة الإشعاعية لكسر خفي في رأس عظم الفخذ.. تحت ضوء القمر.

"الصدى الذي يُعلّمك أكثر من الصوت"

في أحد الدروس، جلس"اسّــي مُحَنْد" في صــمت طويل، لم يتلفظ فيه بأي حرف. الأطفال نظروا إليه، منتظرين أن يبدأ التلاوة أو الشرح، لكنّه ظلّ ساكنًا، كأنَّه حجر في محرابٍ غامض.

كان الكهف صـامتًا، لكن"الطّاهر" شعر بشـيء مختلف. الصَّمت لم يكن خلوًا، بل امتلاء. صـمتٌ يُشـبه واديًا مزدحمًا بالنداءات البعيدة. صـمتٌ يُشـبه لحظة سقوط الرصاصة داخل الجسد قبل أن تصدر الألم.

بعد دقائق، قال"اسّي مُحَنْد" ، دون أن يفتح عينيه:

– "ما الذي سمعتموه؟ "

تردّد الجميع. ثم رفع"الطّاهر" يده، وقال:

– "سمعت صوت قلبي... وصدى جملة نسيتها أمي."

فتح المعلم عينيه، وقال: ـــ "أحسنت... الصدى يُعلّمك أكثر من الصوت. لأن الصـوت خارجي، لكن الصـدى داخلي. والكهوف، يا أبنائي، ليسـت لحفظ الصوت، بل لحفر الصدى في العظم."

ثم أخذ"اسّي مُحَنْد" قطعة من العظم، نحتها بيده حتى أصبحت تشبه قلمًا، وغمسها في الحبر الأسود المصنوع من سناج قناديل الزيت، وقال:

– "اليوم، لن تكتبوا باليد فقط، بل ستكتبون بأذنكم."

نظر إليهم واحدًا واحدًا، ثم رفع صـــوته وتلا آية من ســـورة البقرة، ببطء، بخشوع متقطّع، كأنَّها تخرج من قبوٍ داخلي في روحه:

– "وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ..."

توقّف، ثم طلب من كل تلميذ أن يكتبها، لا كما سمعها، بل كما شعر بها.

كتب أحدهم: "الشهيد لا يُدفن، بل يُزرع."

كتب آخر: "الميت إذا كان مظلومًا، لا يموت."

أما الطّاهر، فكتب:

– "من مات في سبيل الله، عاد إلينا في شكل نور... أو صرخة في صدر يتيم."

قرأ"اسّي مُحَنْد" ما كتبه الطّاهر، ثم رفع رأسه، وهمس:

– "أنت لست تلميذًا فقط، بل شاهد على من لا يجد من يشهد له."

في نهاية الدرس، وقف"اسّي مُحَنْد" قرب الجدار الحجريّ في الجهة الشرقية من الكهف، وقرع عليه ثلاث مرات بعصاه. انفتح فجأة فراغ صغير في الجدار، لا يكاد يُرى، وخرج منه صوت خافت... صوت تردّد فيه كلمات:

– "كُن... فَيَكُونُ." تجمّد الجميع.

تُصـــغي إليـك ومـا تُصـــامُ بنظرةٍ***وتقول كن فيكون مـا تهواهُ

نظر"اسّـــي مُحَنْد" إليهم، وقال: – "هذا الجدار يُردّد ما لا يُقال... وفيه نحفظ الكلمات التي ستُقال عندما يُفتح باب السماء."

وكان الطّاهر، منذ تلك اللّيلة، إذا عاد من الكهف إلى البيت، لا ينام فورًا. بل يضـع أذنه على حائط الغرفة، وينتظر أن يسـمع صـدى الكهف في جدران البيت.

"الكتابة باليد اليمنى واليد الجريحة"

في أحد الدروس، أعطى"اسّـي مُحَنْد" للتلاميذ ألواحًا جديدة — لم تكن من الطين هذه المرة، بل من جلد غزال مملّح ومجفّف، محفورٌ عليه خطوط مقطعة كأنَّها خارطة وريد. قال وهو ينظر في أعينهم:

– "من كتب على الطين تعلّم أن يخطّ على الأرض، ومن كتب على الجلد، اقترب من الكتابة على جسده."

وزّع عليهم أقلامًا نحيلة مصنوعة من عظام طيور الهدد، وقد بُريت رؤوسها بدقة، وكل واحدة مربوطة بخيط أسود رفيع يشبه شَعْر امرأة ماتت وهي تلد في خيمة الحصار. كان ذلك الخيط مقدسًا، لأن فاطمة، والدة الطّاهر، كانت قد أخبرته أن:

– "كل ما رُبط بشعرٍ ميت، لا يُنسى."

بدأ التلاميذ في الكتابة، لكن"الطّاهر" تردّد. يده اليمنى أصيبت بخدش قبل أيام، بسبب انزلاقه عند مدخل الكهف، والجرح ما زال غضًّا، مؤلمًا حين يتحرّك."اسّي مُحَنْد" لاحظ تردده، فاقترب منه، وقال:

– "تستطيع أن تكتب باليسرى إن أردت."

لكن"الطّاهر" هزّ رأسه.

– "سأكتب بيدي الجريحة."

– "ولماذا؟ "

– "لأن الجرح يعرف أكثر من السليم."

ابتســم المعلم، لا فرحًا، بل اعترافًا، كان الولد وصــل إلى المعنى دون أن يُقال له. جلس خلفه، يراقب، والطّاهر بدأ يخطّ بحبر الفحم والدموع المخزنة في عينه اليمنى. كتب على الجلد:

– "يا رب، علّمني أن أكتب كما تنزل المطر... صامتًا، لكنه يُنبت."

الآخرون كتبوا آيات، أو أدعية، أو حكمًا، لكنّ"اسّـــي مُحَنْد" توقّف طويلًا عند لوح الطّاهر، ثم قال:

– "هو لا يكتب بالكلمات... بل بظلّ من ماتوا ولم يقولوا شيئًا."

في ركن الكهف، كان هناك لوح مخصص للحكم، لا يكتبه أحد، بل يُنتقى فيه سطرٌ واحد كل أسبوع، يوضع في الأعلى كراية من خشب:

ذلك الأسبوع، علّق"اسّي مُحَنْد" عبارة كتبها الطّاهر:

– "أنا لا أريد أن أعرف القراءة لأقرأ الجريدة... بل لأقرأ الجرح."

أنا على مذهب محمود درويش حين قال: "علِّميني قراءةَ هذا الترابِ، فإنّ الكتابةَ تبدأُ من نزف جرحٍ... وتنتهي في غيابِ."

ومنذ ذلك اليوم، صار بعض التلاميذ ينادونه سرًا بـ"الذي يكتب بالجُرح".

ولم يُنكر"الطّاهر" هذا اللقب، بل قبله كأنَّه اسم ثالث كُتب له في سجلٍ لا تعترف به فرنسا، لكن تحفظه السماء.

"القرآن بصوت الجبل"

في ليلةٍ موحشــة، غاب القمر خلف ســحابةٍ رمادية غليظة، وكانت الرمال تعصف حول الجبل بصوتٍ يشبه احتكاك الأسنان عند الذعر. دخل"الطّاهر"

الكهف وهو يشعر أن الصَّمت اللّيلة أثقل من المعتاد. بدا المكان كما لو أنه يُهيّئ نفسه لدرس ليس كغيره.

جلس التلاميذ في نصف دائرة، كما جرت العادة، لكن"اسّي مُحَنْد" لم يدخل فورًا. جاء بعد دقائق، حافي القدمين، مرتديًا عباءة من صـوف الغنم، وفي يده مِشكاة صغيرة فيها زيت أسود، قال عنه يومًا إنه مزيج من دمع أفعى وسناج قنديل.

وضع المشكاة في المنتصف، ونظر إليهم طويلًا، ثم قال:

– "هذه اللّيلة لا نكتب... بل نسمع."

ساد الصَّمت .

أغلق الجميع أعينهم بأمرٍ منه، وبدأ بصوت خافتٍ جدًا يتلو:

– "إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ."

توقّف. ثم قال:

– "أعيدوها في صدوركم، لا بألسنتكم."

كان"الطّاهر" يسمع التلاوة بطريقة لم يعرفها من قبل. الصوت لم يكن يأتي من المعلم فقط، بل من الجدران، من سقف الكهف، من تجاويف الأرض، من بين أنفاس التلاميذ أنفسهم. شعر أن الآية لا تنزل فقط في ليل القدر... بل في قلبه هو، في هذه اللحظة.

ثم تلا"اسّي مُحَنْد":

– "وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ "

همس"الطّاهر" في نفسه:

– "هي اللّيلة التي أقرأ فيها وأنا لا أتحرّك... وأسمع فيها وأنا لا أتكلم."

فتح المعلم أعينه، ثم قال بصوتٍ فيه زئير قديم:

– "في هذه اللّيلة، وُلد القرآن في جوف الجبل. هنا، حيث تهرب الكلمات من عيون الفرنسيين، يعود الحرف إلى مكانه الأصلي: في الصدر."

وأشـــار إلى الجدار الغربي، حيث كانت هناك نقوش قرآنية غير مكتملة، قال عنها يومًا إنها كُتبت بدم أفعى، بعد أن استُخدمت لشفاء شاب تسمّم أثناء نقل السلاح."ما كُتب بالدم، لا يُمحى بالحبر"، هكذا كان يُردّد دائمًا.

في تلك اللّيلة، خرج"الطّاهر" من الكهف دون أن يحمل أي شــيء في يده، لكن صدره كان ممتلئًا حتى أطراف الروح.

قال لنفسه وهو يمشي خلف"اسّي مُحَنْد":

– "القرآن ليس كتابًا... بل كائن يسكن من يستحقه."

وفي طريق العودة، همس له المعلم دون أن ينظر إليه:

– "يا طاهر، أنت لا تقرأ القرآن وتحرك به لسـانك لتعجل به... أنت تتلوه لتحرك به الوجدان والحياة فينا.."

فأنشده:

لِكِتابِ رَبِّي ما حَفظتُ حروفَهُ — بلْ سَكَنَ الفُؤادُ، فصارَ منهُ مقامُ

ما بينَ دفّتِه ســـطورٌ ناطقاتٌ — لكنْ لمن فَهِمَ الجلالَ، كلامُ

إنّي إذا رَتّلتُـهُ لم أســـتعِرْ — صـــوتي... ولكن كانَ فيهِ خِتامُ

فالروحُ تُرجِعُ ما ســمِعت كأنّهُ — خطب الإمام، وقال فيهِ السَّـلامُ

"حصة في الحساب... بملح الأرض وتمر الغياب"

في الصباح التالي، جلس التلاميذ في حلقة ضيّقة. لم يكن في الوسط سبورة، بل طبق نحاسيّ مغطى بحصى بيضاء وسوداء، وعلى الجانب الآخر صحن صغير فيه سبع حبات تمر. مدّ"اسّي مُحَنْد" يده، ورفع أول حصاة، ثم قال:

– "اليوم سنعدّ... لكننا لن نحسب كما يحسب التجار، بل كما يحسب الأيتام عدد الغائبين."

كان الدرس في الحساب، لكن دون أرقام مكتوبة. لا دفاتر. لا أعمدة. الحساب هنا لا يقيس الدراهم ولا المحاصيل، بل يقيس الغياب، الجوع، وعدد الأيام التي تمضي دون أن يُطرق الباب.

أخذ"اسّي مُحَنْد" حصاة بيضاء، ووضعها في منتصف الطبق:

– "هذه حصاة تعني يومًا دون تفتيش."

ثم وضع أخرى سوداء: – "وهذه اللّيلة دُفن فيها رجل من دون جنازة."

ثم التفت إليهم وسأل:

– "كم مرَّة غبتم عن البيت دون أن تسأل عنكم أمّهاتكم؟ "

صمت الجميع. وضع سبع حصى سوداء متجاورة، وقال:

– "هذه لحكاية جدي. غاب سبعة أيام عن البيت، وعاد بلا يد. قالت جدتي يومها: 'كنت أعدّ الملح في البيت، كل حفنة كانت أصعب من التي قبلها. لكنني كنت أعلم أنه سيعود لأن الله لا يترك من عانده بالأرقام. '"

ثم ناول كل تلميذ حفنة من الحصى. قال لهم:

– "عدّوا بها أعماركم، لكن لا بالســنين. عدّوا كم يومًا بكيت فيه دون أن يراكم أحد. كم يومًا سمعتم فيه صرخة خلف الجدار. كم مرَّة أخفيتم الجوع عن إخوتكم. هذا هو الحساب الحقيقي."

أما التمر، فلم يكن ليُؤكل.

كان"اسّي مُحَنْد" يوزّع حبة تمر واحدة لكل تلميذ، ويقول:

– "هذه حبة الغائب. إن أكلتها، نسيت. وإن حفظتها، صرت شاهدًا."

الطّاهر لم يأكلها.

خبّأها في قطعة قماش، كتب عليها:

– "تمرّ أبي حين أخذه الجنود... كان لا يزال على المائدة."

وفي نهاية الحصة، نظر"اسّي مُحَنْد" إلى السقف المعتم للكهف، وقال:

– "من لم يعرف الحساب... لن يعرف الخسارة. ومن لم يعرف الخسارة... لن يثور."

وكان"الطّاهر" في تلك اللحظة يفكر في شيء واحد:

– "كم رصاصة دخلت القرية... ولم تخرج بعد؟ "

فقال صوت يسمعه من بعيد:

"أترى حين أفقأ عينيك، ثم أثبت جوهرتين مكانهما...هل ترى؟ هي أشــياء لا تُشترى..."

"تاريخ يُروى بالسرّ، ويُفهم بالدّم"

دخل"اسّي مُحَنْد" الكهف وفي يده كيس قماشي قديم، مربّع الشكل، مربوط بحبل من ليف النخل، وعيناه فيهما شيء مختلف ذلك الصباح — لمعة حزينة، لا تشبه الحزن العادي، بل الحزن الذي يأتي بعد أن تُفتَح خريطة الدم.

وضع الكيس في منتصف الدائرة، وجلس على ركبتيه، ثم قال:

– "الآن، سندرس التاريخ... لكن لا تسألوني عن السنوات ولا أسماء الملوك. فالتاريخ هنا يُروى بصوت الأمَّهات، ورائحة الحطب، وحجارة المداهمات."

فتح الكيس ببطء، وأخرج منه أحجارًا صغيرة منقوشة، كل واحدة تحمل رسمًا غريبًا:

نخلة مكسورة.

بندقية بدون زناد.

وجه بلا فم.

يد مرفوعة تحمل شعلة.

رفع الأولى، وقال:

– "كان هناك رجل يُدعى عمار، قاد ثورة في الجبل. لم يكن يحمل سلاحًا، بل كان يحمل كيسًا فيه رسائل سرية، مكتوبة بالزعفران على جلود الأرانب. كل رسالة تبدأ بآية، وتنتهي بكلمة: الصبر."

رفع الثانية، وقال:

– "امرأة، تُدعى حنيفة. أخذوا أولادها الثلاثة، ودفنوهم في وادٍ واحد، دون أن يُسمح لها بالبكاء. فكانت كل ليلة تغني على سطوح القرية، تغني دون صوت، لكنها حين تموت، سمعوها جميعًا... لأن الجدران انفجرت من شدة الحنين."

رفع الثالثة، وقال:

– "طفلٌ اسمه جابر. كان يرسم الجنود بوجهين: وجه للنهار، ووجه لليل. لم يره أحد منذ عام. لكن في كل مرَّة تمطر السماء، تُغسل الجدران، ويظهر رسم جديد له."

ثم أعطى كل تلميذ حجرًا وقال:

– "لا تحكوا هذه القصص. بل ازرعوها في صدوركم."

سأل الطّاهر:

– "ولماذا لا نكتبها؟ "

أجابه"اسّي مُحَنْد":

– "لأن ما يُكتب يُمحى... أما ما يُروى، فينتقل كالنار من جيل إلى جيل.

في نهاية الدرس، علّق"الطّاهر" حجره فوق لوحه الطيني، ونقش عليه بخط فحم:

– "أنا حجرٌ يُروى. إذا كُسرتُ، خرجتْ من شقّي قصة."

وفي تلك اللّيلة، حلم أن القرية كلها تحوّلت إلى كهوف، وكل طفل فيها يحمل في صدره حجرًا... ينتظر أن يتكلم.

"الدرس الذي لا يُسمح فيه بالنطق"

في اليوم السابع له في الكهف، أعلن"اسّي مُحَنْد" عن درس جديد دون أن يشرح مضمونه. فقط قال:

- "اليوم، الدرس لا يُقال... بل يُحتمل."

ومن لم يذق مرّ التعلم ساعةً***تجرّع ذلّ الجهل طولَ حياتهِ

دخلوا الكهف بصمت. لا أحد يُرحّب بالآخر. لا نظرات طويلة، لا تعابير. جلس كل تلميذ إلى لوحه، لكن هذه المرة لم تكن هناك أدوات: لا فحم، لا أقلام، لا نقوش. فقط الطين، واليد العارية، والوجه المجرّد.

جلس"اسّي مُحَنْد" في منتصف الدائرة، ورفع سبابته اليمنى وقال:

- "ابتداءً من الآن... ممنوع النطق. من يتكلم، يُعاد إلى البيت. من يكتب، يُحرم من الحصة القادمة. ومن يصدر صوتًا، فعليه أن يشرح لنا لماذا لم يصمت."

مضت الدقائق الأولى ثقيلة، كأنَّها تمشي على رُكبتيها."الطّاهر" شعر كان الهواء نفسه أصبح أثقل، لأن كلّ شيء داخله يريد أن يتكلم: أسئلته، اندهاشه، حتى الآية التي سمعها البارحة في الحلم:

- "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ."

أراد أن يهمس بها، فقط لنفسه، لكن نظرة من عيون"اسّي مُحَنْد" كانت كافية لكتم أنفاس الرغبة.

وبدأ الوجدان يتكلم: الطين تحت أصابعه أصبح لينًا، يشبه جلد جرح، بدأ يرسم عليه بإصبعه دون أن يقصد. دوائر صغيرة، ثم خط طويل، ثم شكل يشبه

بابًا موصـــــدًا. فجأة، أحس أنه يفهم من حوله دون أن ينظر إليهم، دون أن يلمسهم.

سأل نفسه:

– "هل كان الصَّـمت دائمًا بهذا الصـدى؟ لماذا كنا نملأ المكان بالكلام بينما الحقيقة تختبئ في السكون؟ "

بعد ســاعة كاملة، أشـــار"اسّـي مُحَنْد" برأســه، وانتهى الدرس. قال بنبرة عميقة:

– "من تعلّم أن يسكت، يستطيع أن يسمع ما لا يُقال. ومن يسمع ما لا يُقال، يسبق الزمن."

ثم التفت إلى الطّاهر، وسأله:

– "ماذا كتبت بإصبعك؟ "

رفع"الطّاهر" لوحه، فكانت عليه دائرة داخل مربع، ثم سهم خارج منه.

أجاب:

– "هذا أنا... في الجوف. والسهم... هو يوم أخرج لأتكلم."

قال المعلم:

– "بعض الأصوات تحتاج عمرًا من الصَّمت كي تُولد."

وفي طريق العودة إلى البيت، لم يتكلم الطّاهر. وحين سألته أمه مساءً:

– "ماذا تعلمت اليوم؟ " أجابها بعينين ساكنتين، وصدرٍ يشبه كهفًا:

– "تعلمت أن أنصت لصوتي... وهو لا يتكلم."

"حين يعلّمك الألم أن لا تنسى"

في صباح كالح، كانت فيه الشمس ضعيفة كأنَّها خرجت مريضة من رحم الغيم، دخل التلاميذ إلى الكهف ليجدوا في المنتصف إناءً فخاريًا فيه ماء رمادي، تفوح منه رائحة خافتة تشبه الحطب الرطب الممزوج بعطر القطران. وقف"اسّي مُحَنْد" قرب الإناء، وقال:

– "هذا ماء الذاكرة. من يشرب منه، قد يتذكر شيئًا أراد نسيانه. من يرفض، قد ينسى ما لا يجوز نسيانه."

أخذ ملعقة من الخشب، ومرّ بها على كل تلميذ."الطّاهر" لم يتردد. شرب.

بعد لحظات، شعر بشيء يزحف في جوفه. ليس برودة، ولا حرارة. بل إحساس بأن ذاكرة جديدة تُحشر في صدره. رأى أمامه — لا بعينيه، بل خلف جبينه — مشهدًا من عامٍ لم يعشه:

– امرأة تركض في الحقل، تحمل طفلًا، والجنود يلاحقونها. تسقط. الطفل يبكي. بندقية تُرفع. صمت. ثم دم.

فتح"الطّاهر" عينيه، ينظر حوله. لا أحد رأى ما رأى. لكنه أيقن: الألم لا يُدرّس... بل يُنقَل. والماء الذي شربه لم يكن ماء، بل أثر من أرواح اختنقت دون أن تصرخ.

في تلك اللحظة، قال"اسّي مُحَنْد":

– "لكل واحد منكم جرح لم يولد بعد. من الآن، ستكتبون عليه."

سحب من الصندوق لوحات جلدية جديدة. هذه المرة ليست من جلد الغزال، بل من جلد ثورٍ ذُبح سرًّا أيام المجاعة، كما أخبرهم.

ناول"الطّاهر" لوحه، وهمس له:

– "اكتب اليوم ما لن تقوله غدًا."

أمسك الطفل القلم، وسأل:

– "هل نكتب الألم؟ "

فأجابه:

– "الألم يُكتب وحده. نحن فقط نُمسك له الورقة."

بدأ"الطّاهر" يخط على الجلد بخط غير مســـتقيم، لا يهتم بالشـــكل، ولا بالحروف. كتب ما يشبه الصرخة، لكنها بلا صوت:

– "في صـــدري دمٌ لا أعرف لمن... لكنه يعلّمني كل يوم أن لا أضـــحك كثيرًا."

ثم خطّ بجانبها:

– "أنا تلميذ الجرح... والكتاب الذي أقرؤه يُنزف."

نظر إليه"اسّي مُحَنْد" طويلًا، ثم قال لتلميذ آخر:

– "توقّف عن الزينة في الكتابة. الحرف الذي لا ينكسر، لا يدخل القلب."

ومن تلك الحصة، لم يعد"الطّاهر" يسأل "ما معنى هذا؟ "، بل صار يسأل:

– "ما الذي يجب أن أتحمّله كي أفهم؟ "

"الكلمات التي تمشي وحدها"

في ذلك اليوم، لم يُحضـر "اسّـي مُحَنْد" معهم شـيئًا. لا ألواح، لا حبر، لا قصـص، لا أحجار. فقط نفسـه وعصـاه المائلة، وعيناه المُثقَّلتان. دخل إلى الكهف كما يدخل الإمام إلى محراب صلاة استُنزفت منه التكبيرات.

جلس في المنتصف، وقال:

– "اليوم، سـنتعلّم اللغة... لكن لا اللغة التي تُكتب في الكتب، بل اللغة التي تمشي وحدها دون أن نلحظ ذلك."

وإنّما الناسُ بالأرواحِ لا الجُثَثِ***وإنما الشعرُ بالألفاظِ لا الشُّهُبِ

سكت، ثم أشار بيده إلى الجدار:

– "هل تعلمون أن هذا الجدار يتكلم منذ قرون؟ "

ضـحك أحد التلاميذ خلسـة. لكن"الطّاهر" لم يضـحك. كان يحدّق في الجدار منذ أول مرَّة وطأ فيه الكهف، وكان يشعر بأن خلف هذا الجدار أصوات لم تنتهِ بعد، فقط ترتدي هيئة الطين.

قال"اسّي مُحَنْد":

– "بعض الكلمات تمشـي. لا نراها. لكنها تمرّ بجانبنا. تدخل في نومنا. تختبئ في صدورنا. تظهر فجأة على لسان عجوز، أو في صوت أذان مُنكسر، أو في بكاء رضيع يُولد زمن القصف."

ثم التفت إليهم وسأل: – "من منكم رأى كلمة تمشـي؟ " رفع"الطّاهر" رأسه ببطء وقال:

– "أنا..."

- "وماذا رأيت؟ "

- "رأيت كلمة ‘أُمّي’ تمشـي وحدها يوم مداهمة الفرنسـيين. لم تصـرخ، لم تقل شيئًا، لكنها سبقتنا وهربت، وتركَتْنا خلفها... في صدرها فقط."

تسيرُ كلماتي في الفيافي كأنها***خُيولُ المعاني في المدى تتهادى

قال المعلم بصوت خافت، وكان الكهف وحده يسمعه:

- "اللغة ليست حروفًا. اللغة ظلّ. من يفقد ظله، لن يفهم أي شـيء، حتى لو حفظ القرآن كلّه."

ثم طلب منهم أن يغمضـــوا أعينهم، ويعيدوا في أذهانهم كلمة واحدة فقط سمعوها في لحظة خوف.

كلمة التصقت بهم كأنَّها وشم على عظم.

الطّاهر رأى كلمة: - "اصمت."

كانت أمه قد همســـت بها له ليلة اقتحام الدورية للبيت، بينما كانت يده ترتجف، وجفناه مفتوحان على آخرهما.

تلك الكلمة، لم يسمعها أحد غيره. لكنها منذ ذلك اليوم، لم تتركه قط.

فتح الجميع أعينهم، وقال"اسّي مُحَنْد":

- "اللغة التي تبقى معك في الخوف... هي اللغة التي ســتُقاتل بها يوماً ما."... كتب الطّاهر في ذهنه، لا على اللوح:

- "أنا أحمل لغة لا يراها الفرنســـي... لكنها تعرف كيف تطعنه دون أن تصرخ."

"الدرس الذي وُلِد فيه السؤال"

في ظهيرة غريبة، كان فيها الضوء الخارج من فم الكهف شاحبًا، أشبه بعيون عجوز تُحدّق في غياب طويل، دخل التلاميذ إلى الدّرس دون أن يُسلّموا."اسّي مُحَنْد" لم يكن كعادته جالسًا ينتظرهم، بل كان واقفًا قرب الجدار، يرسم عليه خطوطًا بفحم محترق، تُشبه طريقًا ضيّقًا تتخلّله شقوق.

وحين اكتمل رسمه، التفت إليهم وسأل:

– "من أنتم؟ " لم يجب أحد.

كرّر السؤال، لكن هذه المرة بصوت أشدّ هدوءًا، وكأنّ كلماته تمشي حافيةً فوق رؤوسهم:

– "قلت... من أنتم؟ "

رفع أحد التلاميذ يده، وقال باسمه، واسم والده، وقريته. فهزّ المعلم رأسه وقال:

– "لا... هذا ما يُقال في سجلات الفرنسيين. أنا أسأل: من أنتم؟ ما الداخل فيكم؟ ما الذي يجعلكم مختلفين عن الحجارة والنخيل والدخان؟ "

كان"الطّاهر" ساكنًا، يضغط بكفه الصغيرة على لوحه الطينيّ، كان الجواب ليس في الكلام، بل ينتظر أن يُولد من الحرارة التي بين اللحم والطين.

همس لنفسه:

– "أنا الذي ابتلع الرصاصة... ولم تمت."

رفع رأسه، وقال:

- "أنا... سؤال لا يعرف أحد كيف يكتبه."

توقف الكهف لحظة. كل الأنفاس جمدت."اسّــي مُحَنْد" نظر إلى"الطّاهر" نظرة طويلة، ثم اقترب منه، ووضع يده على رأسه، وقال:

- "أنت لست تلميذًا فقط. أنت مسودة رجل لم يولد بعد."

ثم التفت إلى الجميع:

- "كل واحد منكم، إن لم يسـأل نفسـه هذا السـؤال قبل أن ينام، فلن يكون إلا وعاءً لما يريده المسـتعمر. لكن الذي يسـأل نفسـه من هو، يصـبح حجرًا لا يتحرك بسهولة، ولا يُكسر بسهولة."

بعد ذلك الدرس، لم يكن"الطّاهر" يرى اسمه كما يراه في شهادة الولادة، بل أصــبح يشــعر أن اســمه يتشــكل كل يوم، ويكتبه من جديد، ليس بالقلم، بل بالصرخات المكبوتة، وبصمته حين لا يجب عليه السكوت.

أُعيدُ اسمي في كلِّ يومٍ صِياغةً***بِصَمتٍ كأنّي في السُّكوتِ أُنادِي

وفي البيت، حين سألته فاطمة:

- "كم صفحة حفظت اليوم؟ "

قال: - "صفحة واحدة... لكن فيها جملة كاملة منّي أنا."

وكتب على ظهر يده، بخط لم يره أحد:

- "سأعرف من أكون... حين أخسر صوتي ولا أخاف."

"الدرس الذي لا يُمتحَن فيه أحد"

ذلك اليوم، حين جلس التلاميذ في أماكنهم، لاحظوا شـيئًا غريبًا: على كل لوحٍ طيني، كُتب بخط فحميّ رقيق آية واحدة... لكن ليست الآية نفسها.

كل لوحٍ يحمل آية مختلفة.

أحدهم قرأ: "لقد خلقنا الإنسان في كبد."

وقرأ آخر: "وجعلنا بعضكم لبعض فتنة."

وثالث قرأ: "وأُمرت أن أكون من المسلمين."

أما الطّاهر، فقد وجد على لوحه الآية:

– "بل الإنسان على نفسه بصيرة."

قرأها أكثر من مرة، ثم لمس الكلمات بطرف إصبعه. لم يكن يقرأ فحسب، بل يتحسس الحروف كما يتحسس الندبة القديمة على جرحٍ شُفي ظاهريًّا وبقي يتكلم تحت الجلد.

دخل"اسّي مُحَنْد" بعد قليل، وقال:

– "لا تسألوني من كتب الآيات. هي اختارتكم."

ثم جلس أرضًا، طوى عباءته تحت ركبتيه، وقال:

– "اليوم لا يوجد امتحان، لأنه لا أحد يمكنه أن يُمتحن فيما يعرفه عن نفسه. هذا الدرس لا يُحاسب فيه من لا يفهم، بل يُحاسب من لا يسمع."

ما ذنبُ عقلٍ لم يَنَلْ فَهْمَ العِبَرْ **** إنْ كانَ قلبٌ عن سَماعِكَ في خَجَلْ

أغمض عينيه، وأضاف:

– "كل واحد منكم سيقرأ آيته ثلاث مرات. لا بصوتٍ عالٍ، بل في صدره. فإن لم يشعر بشيء، فليعيدها سبعًا. فإن ظلّ بلا أثر... فليعرف أن شيئًا ما بداخله قد انكسر، ويحتاج إلى زمن لإصلاحه."

بدأ"الطّاهر" يقرأ: مرة..مرتين.. ثلاثًا..

وفي المرة الرابعة، شعر أن الآية لا تقرأه فقط، بل تكشفه. كأنَّها مرآة قديمة يرى فيها وجهًا لا يعرفه، أو صوتًا خرج من فمه في ليلة بعيدة، ثم عاد ليحاسبه.

– "بل الإنسان على نفسه بصيرة."

قال في نفسه:

– "يعني أن لا أحد يعرف ما فيّ أكثر منّي... ولا أحد سيحمل ما فيّ عنّي."

شعر بحرارة خفيفة في صدره. ليست حمى. بل شيء يشبه اليقظة بعد نومٍ طويل. حين انتهى الدرس، لم يسألهم"اسّي مُحَنْد" عن تفسير، ولا طلب منهم حفظًا. فقط قال: – "من لم يتغيّر في داخله اليوم... لن يتغيّر بالكلمات."

وقد يُنبتُ المرعى على دِمَنِ الثَّرى **** وتبقى حزازاتُ النفوسِ كما هيا

وبينما انصرف التلاميذ واحدًا تلو الآخر، وقف"الطّاهر" أمام الجدار الصامت، وخطّ عليه بفحمة صغيرة:

– "أنا أرى نفسي... لكن لا أستطيع الكذب عليها بعد الآن."

ومنذ ذلك اليوم، صار"الطّاهر" كلما سمع آية، يسأل نفسه سؤالًا واحدًا:

– "هل أنا من تقصده الآن؟ "

"القَسَم الذي لا يُقال بصوت"

في صـــــبيحة باردة، حيث كان الضـــــباب يتدلّى من الجبال كعباءة أرملة خرجت لتبحث عن قبر، دخل التلاميذ الكهف ليجدوا"اسّـــي مُحَنْد" واقفًا أمامهم، لا يحمل لوحًا، ولا عصًا، ولا قصصًا.

بل كان يحمل شيئًا صغيرًا ملفوفًا بقطعة قماش بيضاء، موشومة برسم يدٍ مفتوحة. فتحها بهدوء.

في الداخل، كان هناك قلم واحد فقط.

ليس من الخشب، ولا من العظم.

بل من الحديد الملوّن بلون الصـــدأ، رأســـه مبرود بدقة مذهلة، ومقبضـــه ملفوف بشعرة واحدة طويلة — قال البعض إنها من فتاة شنقت نفسها خوفًا من الاغتصاب.

قال"اسّي مُحَنْد": – "هذا القلم... لا يُمسك به إلا مرَّة واحدة."

نظر إلى الطّاهر، ثم وضع القلم أمامه مباشرة.

– "أنت اليوم... ستكتب أول جملة لا تعود منها."

لم يتكلم الطّاهر. لم يسأل. مدّ يده، وأمسك بالقلم.

في اللحظة التي لمست فيها أصابعه المعدن البارد، خزّ في داخله شعور غريب. كأنَّما كل الكلمات التي ســـــمعها من قبل — كل الآيات، الرســـوم، الصَّـمت ، الرصــاصــات، الطين، المداهمات، نظرات أمه — عادت إليه دفعة واحدة، كأنَّها تريد الخروج... لا في صوت، بل في حرف واحد مكتوب.

أغمض عينيه. رفع القلم. قرّبه من اللوح الجلديّ الذي وُضـــع أمامه، ثم كتب:

– "أنا لا أكتب لأُقال، بل لأبقى."

أومأ"اسّي مُحَنْد" برأسه، ثم ناوله قطعة صغيرة من الفحم، وقال:

– "الآن... أعد كتابتها، لكن على الجدار. لأن الجدار هو الذي يُبقي الشاهد، حين تُمحى الأسماء من الدفاتر."

قام الطّاهر، وكتبها ببطء، بجوار النقوش القديمة، بجوار الدم اليابس، والأثر المغمور:

– "أنا لا أكتب لأُقال، بل لأبقى." سأله أحد التلاميذ بعد الدرس:

– "هل ستكتب بها مرَّة أخرى؟ " فردّ الطّاهر، وهو يسلّم القلم إلى"اسّي مُحَنْد":

– "لا حاجة لي بالقلم بعد الآن... أنا صرتُ هو."

ومنذ تلك اللحظة، بدأ"الطّاهر" يُرى في الكهف بطريقة مختلفة. لم يعد فقط "ابن الرصاصة"، بل صار يُنادى أحيانًا، همسًا، بين التلاميذ:

– "الذي كتب اسمه على الجدار."

"يوم غاب فيه المعلم... فتكلّم الجدار"

في صباح غائم، لم يأتِ"اسّي مُحَنْد". انتظر التلاميذ في أماكنهم ساعة... ثم ساعتين. الكهف كان يلتزم صمته، كان كل ما فيه ينتظر، لا صوت، لا حركة، حتى الألواح بدت كأنَّها تفكر. همس حمزة، "الناسخ"، بتردد:

– "أول مرَّة يتأخر..."

– "ربما لم يأتِ أصلًا."

– "أو... مات؟ " همس أحدهم، ثم صـــمت خائفًا من أن يتحقق كلامه. لكن الطّاهر، الجالس كعادته في الركن الأيســـر، لم يتحرك، لم يتكلم. عيناه مثبتتان على الجدار الذي خط عليه جملته بالأمس.

كان يشعر أن الغياب هذا ليس عرضيًا، بل مقصود... جزء من درس لم يُعلَن عنه.

ثم فجأة، حدث شيء عجيب.

انطلق من الزاوية الجنوبية صـوت خافت، ارتجّ صـداه بين جدران الكهف كأثر نفسٍ حارٍ في غرفة باردة. لم يكن صـوتًا بشـريًا، بل اهتزازًا داخل الحجر نفسه. ارتجف الطّاهر، لكنه لم يرتعد.

قام بهدوء، واقترب من الجدار.

هناك، في بقعة لم يُكتب عليها من قبل، ظهرت شـــقوق دقيقة، خطوط عشوائية... لكنها كانت ترسم شيئًا.

وجه. ثم يد. ثم كلمة واحدة:

– "اكتب."

التفت"الطّاهر" إلى رفاقه. قال:

– "الكهف لا يحتاج إلى معلم اليوم."

ثم جلس، وأخذ لوحه الطيني، وبدأ يخط، لا بنظام، لا بخوف، بل كما تملي عليه ذاكرته غير المرئية.

كتب:

- "إذا غاب من يعلّمني، فلن أغيب عمّن تعلّمتُه."

- "كل جدار في هذا المكان يعرفني، وكل نقش فيه صار مرآة لي."

- "أكتب الآن لأن الصَّمت نفسه يطلب مني ذلك."

بقية التلاميذ لحقوا به.

واحد كتب عن جده الذي لم يره قط.

وآخر رسم قدمًا مكسورة تمشي فوق عَلم فرنسا.

وثالث كتب فقط:

- "أخاف أن أخرج من الكهف ولا أعود... لأني هنا أعرف من أكون."

في نهاية اليوم، ترك كل تلميذ لوحه في مكانه.

خرجوا، والخوف لم يكن في قلوبهم، بل وراءهم، يتبعهم كظلّ لا يتجرأ على الدخول.

أما الطّاهر، فقد توقّف قبل الخروج بلحظة، التفت إلى الجدار وقال بصوت هامس:

- "اليوم، كنت أنت... المعلّم."

ومنذ ذلك اليوم، صار التلاميذ يعرفون:

- "إن غاب"اسّي مُحَنْد"... فالكهف سيتكلم."

"مرآة لا تعكس وجهًا"

في اليوم التالي لغياب المعلم، عاد"اسّي مُحَنْد" كأنَّه لم يغِب. وجهه أكثر شحوبًا، وعيناه عميقتان كأنَّهما خرجتا من حرب لم تقع بعد. لم يعتذر. لم

يشــرح. فقط جلس، ومد يده إلى حقيبة جلدية قديمة، وأخرج منها شــيئًا غريبًا: مرآة مغطّاة بخِرقة سوداء.

قال وهو يضعها أمام التلاميذ:

– "هذه المرآة ليست لتروا وجوهكم... بل ما خلفها."

ساد صمت غريب. ثم أضاف:

– "من ينظر فيها، سيرى السؤال الذي لا يريد أن يسأله."

كان"الطّاهر" أول من تقدّم.

أزاح الخِرقة ببطء.

المرآة لم تكن لامعة تمامًا. عليها خدوش، بقع، وانكســـارات تجعل الوجه فيها ممزّقًا، لا مكتملًا. نظر الطّاهر، فرأى شيئًا لم يفهمه:

لم يرَ وجهه، بل طفلًا يشبهه، واقفًا في صحراء، يحمل حجرًا بيده اليمنى، ومصحفًا باليسرى.

تجمّد. أراد أن ينظر بعيدًا، لكن صوته خرج دون أن يخطّط:

– "من هذا؟ "

ردّ"اسّي مُحَنْد"، كمن يقرأ من داخل الحجر:

– "هذا الذي فيك... ينتظرك أن تختار أي يدٍ ستُطلق أولًا."

جلس"الطّاهر" دون أن يتكلم. شـعر كان روحه انشـطرت، نصـفٌ يريد أن يتلو، ونصفٌ يريد أن يُقاتل. وكل حرف تعلّمه، وكل صمت ابتلعه، وكل ضربة خافتة على اللوح، تتراكم الآن لتصبح سلاحًا غير مرئي.

المعرفة التي اكتسبها لم تعد تقف عند حدود القراءة والكتابة، بل صارت مرآة تفضح نواياه، تجبره على أن يرى ما يتكوّن داخله دون أن يملك القدرة على إيقافه.

قال له"اسّي مُحَنْد":

– "القراءة التي لا تَحفر، تُزيّن فقط. والحروف التي لا تُربكك، لا تُشكّلك."

ثم سلّمه قطعة صغيرة من الزجاج، مكسورة من المرآة ذاتها، وقال:

– "احتفظ بهذه... ستذكّرك أنك ما زلت تتكوّن."

في تلك اللّيلة، عاد"الطّاهر" إلى البيت، ووضع القطعة تحت وسادته.

نام... فرأى نفسه في الحلم يمشي على رمال تغلي، وكلما تقدّم، سمع الآية تتردّد حوله:

– "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ..."

استيقظ، ويده تمسك بالحجر.

"الامتحان الذي لا يُحدّد بدرجة...!"

في اليوم التالي، لم يجلب"اسّي مُحَنْد" شيئًا معه إلى الكهف سوى ورقة واحدة مطوية بعناية، وقد وُضعت بين صفحتين من مصحف صغير.

دخل وجلس بصمت. وجهه مشدود كأنَّه حمل حزنًا لا يُقال، وراية لا تُرفَع. فتح الورقة، وأعلن بصوت متهدّج:

– "اليوم... سيكون هناك امتحان."

ارتفعت أنفاس متوترة. لم يكن التلاميذ معتادين على هذا النوع من الصيغ، لأن الكهف كان دائمًا بلا أسئلة مغلقة، ولا علامات تُقسَّم فيها الأرواح.

سأل أحدهم:

– "امتحان ماذا؟ "

أجابه"اسّي مُحَنْد":

– "امتحانكم الحقيقي... إن لم تُفكّكوا السؤال، سيفكّككم الجواب."

أخرج من جيبه حجرًا صغيرًا، داكن اللون، ورفعه أمامهم.

– "هذا الحجر... وجدته في فم طفل قُتل قبل أن ينطق. وضعوه في فمه لكي لا يصرخ أثناء المداهمة، فمات مختنقًا."

ثم كتب على اللوح بقطعة فحم:

– "ماذا كنّا سنقول لو نجونا مكانه؟ "سكت الجميع.

هذا ليس سؤال فهم أو تحليل. بل سؤال روح. سؤال لا تُجاب عليه بعقلٍ مدرّب، بل بأثر ما حُفر في القلب ولم يُمحَ بعد.

بدأ التلاميذ واحدًا تلو الآخر يحاولون الكتابة على ألواحهم. بعضهم كتب أدعية، آخرون كتبوا آيات، بعضهم اكتفى بصمتٍ طينيّ يشبه الضياع.

الطّاهر لم يكتب شيئًا في البداية.

ثم فجأة، أمسك لوحه، وغرس فيه فحمًا حتى تصدّع الطرف. ثم كتب:

– "لو كنتُ مكانه، كنتُ سأصرخ بالحجر نفسه."

– "كنتُ سـأضـرب به الباب، أو الجدار، أو رأسـي... لكنني لن أختنق بصمتي."

– "المعرفة التي لا تفتح الفم المغلق، ليست علمًا، بل لعنة."

قرأ"اسّي مُحَنْد" ما كتب، ثم مشى إليه، وقال:

– "أنت لم تُجب عن السؤال... بل كسرتُه."

ثم نظر إلى الجميع:

– "الذين يُكسرون السؤال هم الذين يُصنع منهم القادة. أما الذين يجيبون بسرعة، فغالبًا لم يُفكروا بما يكفي."

وفي نهاية اليوم، لم يوزع المعلم درجات، بل وضـع يده على صـدر كل واحد منهم.

وحين وصل إلى الطّاهر، لم يضغط.

قال فقط:

– "ها هنا... سيُولد الكلام الحقيقي حين تأتي النار."

وفي الطريق إلى البيت، همس"الطّاهر" لنفسه:

– "أنا لا أنتظر الامتحان... أنا أعيشه منذ وُلدت."

"الخروج من الكهف... الدخول إلى الذات"

مرّت الأيام، وكل يوم في الكهف كان يمحو من"الطّاهر" جزءًا قديمًا، ويكتب فيه حرفًا جديدًا، لا يشبه ما يُدرّس في المدارس ولا ما يُتلى في الخطب، بل يشبه الطين حين يبدأ بالتشكّل داخل يد خالقٍ يُعيد رسم العالم من صدوعه.

لم يعد"الطّاهر" يكتب على اللوح فقط، بل كان يكتب في عينيه، في خطواته، في طريقه من الكهف إلى البيت. في نظرته إلى الأشجار التي قطعتها دورية فرنسية.

في الطريق الذي عرفه من عدد الأحجار، لا من عدد الخطوات. في دمع أمه حين تحاول ألا تبكي، في يد أبيه حين يضرب الأرض ولا تُثمر.

وفي ليلة ختام الحصص، جلس"اسّي مُحَنْد" وسطهم، وقال:

– "غدًا... لن نلتقي." صمت. ثم أكمل:

– "غدًا سأغيب، لا بسبب العدو، ولا المرض... بل لأن ما كان عليّ أن أعلّمه، قد تم."

سأله حمزة "الناسخ": – "وهل سنبقى تلاميذ؟ "

أجابه المعلم، وهو يشير إلى الجدران:

– "كل من كُتب اسمه هنا، لم يعد تلميذًا... بل شاهدًا."

وقف أمام الطّاهر، ومدّ إليه مفتاحًا صغيرًا صدئًا.

– "هذا لا يفتح بابًا. بل يفتحك أنت، حين تغلقك الدنيا."

ثم أعطاه قطعة من القماش، رسم عليها ثلاث كلمات بالفحم:

– "كهفك فيك."

خرجوا في الصباح التالي، لا بخوف، ولا بفرح.

خرجوا كما يخرج الشهداء من قبور مؤجلة — بأعينٍ رأت ما لا يجب أن يُقال، وبأجساد تعرف أن الحياة لم تعد كما كانت قبل دخول الكهف.

أما الطّاهر، فلم يلتفت.

في يده المفتاح.

وفي صدره صوت لا يشبه صوت الأطفال.

وحين عاد إلى البيت، كتب على جدار غرفته، لأول مرَّة منذ بدأ الكلام:

- "دخلتُ الكهف تلميذًا... وخرجتُ منه آية لم تُفسّر بعد."

مجاعة 1945

"الشّتاء الذي أكل الضوء"

لم يأتِ شتاءُ 1945 ككل شتاء. لم يكن فصلًا، بل نهاية لفصول كانت تصدّق أن للمطر معنى، وللتراب أمل.

جاء الشّتاء هذا العام بلا غيم، بلا مطر، بلا رعد. جاء ككابوس رماديّ على شكل هواء بارد، يتسلّل من الشقوق، ثم ينام فوق عظام الجائعين.

في ذلك العام، بدأت القبور تُحفر قبل أن يموت أصحابها.

القرية، التي كانت تعرف كيف تصمت في وجه الفرنسي، بدأت الآن تصمت في وجه الجوع.

الصَّمت هنا لم يكن خوفًا، بل خجلًا: من الله، من الأمَّهات، من الأطفال الذين يلعقون أصابعهم لأنهم نسوا طعم الخبز.

الطّاهر، وقد صار في السابعة، لم يعد يعرف اللّيل من النهار، فالضوء أصبح شاحبًا كان الشمس فقدت حليبها. كانت الأيام رمادية، والسماء رمادية، والوجوه رمادية... والخبز، إن وُجد، يشبه قطعة طين مشوية.

في بداية يناير، كان أول من مات في الحي العجوز "امَّا مسعوده"، لم يمت أحد قبلها منذ شهور، لكن موتها فتح الباب.

منذ دفنها، صار الموت يأتي في قافلة، لا على مهل.

قالت فاطمة، أُمّ الطّاهر، وهي تمسح جبهة ابنها بكفها الضعيفة:

– "منذ ماتت (امَّا مسعوده)، صار موت الجوع لايعرف الاستئذان."

في الزاوية الشمالية من البيت، وُضع صندوق الخسائر.. قطعة خشب عتيقة توضع فيها الأشياء التي لم تعد تُؤكل، لكنها لا تُرمى:

قشور البيض.. حبات زيتون مجعدة.. أظافر حيوانات..

لسان طير ميت.

قال الأب، يوسف:

– "كل شيء قابل للأكل... حين يصبح الموت أرخص من الخبز."

وكان"الطّاهر" ينظر إلى الصندوق كمن ينظر إلى كتاب مقدّس مقلوب. شيء لا يفهمه، لكن يشعر أن فيه سرًّا خفيًا لا يُقال إلا لمن اقترب من الحافة.

وفي الحارة، بدأت البيوت تُغلق نهارًا، وتفتح ليلًا.

كل بيت أصبح كهفًا من الحذر، وسراديب من العيون الغائرة.

الفرنسيون لم يختفوا، بل صاروا يظهرون أكثر.

يأتون في الشاحنات، يجمعون الحبوب المكدسة، ويتركون "نشرة طبية" على الجدران كتبوا فيها:

– "ننصح السكان بعدم أكل الحبوب المخزنة لأنها فاسدة."

ضحك الناس... لا لأن النشرة مضحكة، بل لأن الكذب صار أكثر تغذية من القمح.

الطّاهر، في إحدى الليالي، كتب على التراب بإصبعه:

– "الفرنسي لا يريد أن نثور... يريد أن نموت بصمت، ثم يقول: لم يكونوا هنا أصلًا."

وكانت تلك أول مرَّة يشعر أن الموت في قريته ليس قدرًا... بل قرار.

"فلسطين في الملعقة الفارغة"

في مساءٍ رماديّ، كانت فاطمة تغلي ماءً فارغًا في الطنجرة، تضع فيه حفنة من الحصى، فقط كي تخدع أذني الأطفال بأن هناك طعامًا يُطهى. الجوع لم يعد يُقاس بالمعدة، بل بصوت الغليان الكاذب.

وكان "الطّاهر" جالسًا عند الباب، يحفر في الأرض بعود جاف، يرسم دوائر، يملؤها بالحجارة الصغيرة، ثم يعيد ترتيبها.

رآه جده، الحاج بَنْسعيد، واقترب منه.

- "ما هذا يا وليدي؟ "

- "هؤلاء ناس... وهنا جنود."

- "ومن هؤلاء؟ "

وأشار إلى دائرة صغيرة في زاوية الشكل، محاطة بالأحجار من كل الجهات.

أجاب الطّاهر:

- "هذي فلسطين."

نظر الجد في عينيه طويلًا، ثم جلس، وقال:

- "من علمك اسمها؟ "

- "الشيخ مُحَنْد ، يوم كان يحكي عن القدس... وقال إنها تشبهنا."

- "وكيف تشبهنا؟ "

- "قال إن فيها ناس يحرســـون مفتاح بيتهم من خمســـين ســـنة، وهم لا يملكون خبزًا... مثل أمّي."

صمت الجد.

ثم أخرج من جيبه قطعة نقدية نحاســية ملســاء، مرّرتها آلاف الأصــابع، وقال:

- "زمان، لما كنت شابًا، كنت أسمع عنهم... عن اليهود الذين جاءوا من بعيد، وزرعوا أرضًا ليست لهم، كما زرع الفرنسيون أرض جدك."

أضاف بعد تنهيدة:

- "كلاهما يزرعك كأنَّك لست شجرة، بل حجر يمكن اقتلاعه."

كأنّي حجرٌ في يدِ الزّارعينَ***يُغرسُ حيثُ لا يُرجى لهُ نُماءُ.

الطّاهر تابع رسمه، ثم فجأة سأل:

- "هل هناك فرنسيون في فلسطين؟ " ابتسم الجد، وقال:

- "الفرنسي عندما جاء، قال لنا: جئنا نعلّمكم. لكننا وجدنا المدارس تُغلق، والكتب تُحرق، والقرآن يُسحب من الأيدي."

- "واليهود؟ "

- "جاءوا وقالوا: هذه أرضــنا. لكننا وجدنا البيوت تُهدم، والأشــجار تُقلع، والمساجد تُدنّس."

هزّ "الطّاهر" رأسه، وقال بنبرة طفلٍ يسمع دقًّا في صدره:

– "يعني... الفرنسي يسرقك ويبتسم. واليهودي يسرقك ويقول إنك غير موجود."

ثم نهض، وأخذ الملعقة الفارغة من جانب الطنجرة، نظر في سطحها المعدني اللامع، وقال:

– "انظر... وجهي هنا."

– "نعم."

– "والأرض أيضًا ترى وجهي... حتى لو لم آكل منها."

ثم ضغط الملعقة على التراب، وقال:

– "مثل ما نُحينا من فوق المائدة... نُحيي ما تحتها."

في تلك اللّيلة، حين نام، كتب"الطّاهر" على الجدار الطيني بأصبعه:

– "فلسطين اسمٌ آخر للجزائر... والاحتلال لا يُبدّل اسمه، فقط يبدّل قناعه."

"حين بدأ الجوع يُنسي أسماءنا":

مع مرور الأيام، لم يعد"الطّاهر" يندهش من عدد الموتى، بل من كيفية نسيانهم.

قبل أسابيع، كانت كل جنازة تُروى وتُبكى، تحفظ اسم الميت، ملامحه، آخر كلماته.

الآن، يموت الرجل أو المرأة، وتُدفن أسماؤهم مع أجسادهم. لا مرثية. لا شواهد. لا تراب يُعبّأ بالحنين.

بدأ الأطفال ينادون الأموات بأوصافهم، لا بأسمائهم:

– "ذاك الذي كانت أمه حبلى ومات."

– "تلك التي كانت تُطعم قطًّا وتنام معه."

– "ذاك الذي أكل جلد حذائه ومات بعده بيوم."

يموتُ الفتى في الدهرِ لا ذكرَ يُبقيه***سوى وصفِ حالٍ في العيونِ يُجريه

أما سجل الموتى، فلم يكن دفترًا، بل عقدًا طويلًا من حبات الشعير، كل حبة تمثّل ميتًا.

تعقدها النسوة، واحدة تلو الأخرى، في خيط من شعر الغنم.

وكانت فاطمة، أم الطّاهر، تحتفظ بالعقد في قطعة قماش وسط خزانة الطين، وتقول وهي تربطه:

– "هذا الدفتر لا تحرقه فرنسا... لأنه لا يُكتب بالحبر."

في أحد الأيام، جاء الأب يوسف يحمل بين يديه جثة طفل صغير، جاره، اسمه "محمود الصغير".

لم يكن في البيت من يكفّنه. فلفّوه في قطعة من حصير القصب.

همس"الطّاهر" وهو ينظر إلى الجثة:

– "كأنَّنا نُرسلهم إلى الأرض ملفوفين في حكايات غير مكتملة."

ثم خرج مع أبيه لدفنه في حقل القمح، حيث الأرض قاسية لا تحفر إلا بالصبر.

لم يُقرأ شيء، فقط نثروا فوقه حفنة من القمح اليابس، وقال الأب:

- "ربما تطلع حبة فوقه... وتقول: مرّ من هنا جائع لم يَشبع."

في اللّيل، سأل"الطّاهر" أمّه:

- "لماذا لا نكتب أسماءهم؟ "

- "لأن من لا يُطعمهم، لا يستحق أن يعرف أسماءهم."

- "وأين نكتبهم إذًا؟ "

- "في الجدران، في الغبار، في بحة صوت المؤذن، في غفوة الأرامل، في دفء النار التي لا تكفي أحدًا."

حين نام الطّاهر، رأى في الحلم أن أسماء الموتى تخرج من الأرض على هيئة نباتات،

لكن لا أحد يعرفها، لأن الريح مزّقت أوراقها قبل أن تُقرأ.

وفي الصباح كتب على الجدار الطيني:

- "من لا يجد قبرًا، يعيش في اسمي."

"الوجبة الأخيرة للجارة"خالتي حَدّه""

في مساءٍ خافت الضوء، كان النسيم البارد يتسلّل من نافذة الطين وكأنَّه يجرّ في ذيله نذرًا غير معلن.

مرّت فاطمة، أم الطّاهر، على بيت جارتها "حدّة بنت علي"، لتترك لها قليلًا من الماء الساخن... فوجدت الباب مفتوحًا.

دخلت دون استئذان. كان البيت صامتًا."خالتي حَدّه" جالسة وسط أولادها الخمسة، أعمارهم بين الثالثة والعاشرة، وكلهم يحدّقون في قطعة من الخبز

اليابس موضوعة على طبق من الخزف القديم. لم تكن قطعة... بل شاهد قبر فوق مائدة.

رأت فاطمة أن"خالتي حَدّه" تُقسّم ما يشبه "الوجبة الأخيرة"، بهدوء مهيب، كما تفعل الكاهنات في الأساطير القديمة.

ناولت الأول ثلاثة حبات زيتون.

لثانيها، قطعة جبن يابسة بحجم الإبهام.

وللثالث، قشر بيضة مطحون، قالت له وهي تضعه على يده:

– "هذا كالدواء... لا يشبع، لكنه يُذكّرك أن في البيض حياة."

الرابع ناولته جرعة ماء ملوّث بنعناع جاف، أما الخامس، فأرضعته من صدرها الجاف، كما لو أن الصدر لا غذاء فيه، إلا الحنين.

جلست"خالتي حَدّه" بعد ذلك، وغمست إصبعها في التراب، كتبت عليه بهدوء:

– "إنا لله وإنا إليه راجعون."

ثم، قبل أن يراها الأطفال، مسحتها بكفّها.

قالت لفاطمة:

– "لا أريد أن يقرأ الفرنسي ما أكتب."

ثم استندت إلى الجدار، وأغمضت عينيها. لم تتأوّه. لم تتنهّد. فقط انزلقت روحها كما ينزل الماء في جرنٍ قديمٍ لا صوت له.

القرية لم تبكِ كثيرًا.

البكاء صار ترفًا.

لكن الطّاهر، الذي مرّ من عند الباب صباحًا، رأى في الهواء شيئًا غريبًا: رائحة تراب مبتلّ، رغم أن السماء لم تمطر.

قال لأمه: – "حدّة ماتت، لكنها لم تسقط."

سألته: – "لماذا؟ "

قال: – "لأنها مسحت الآية... كي لا يقرأها من لا يؤمن بها."

وفي اللّيل، حين عاد إلى البيت، كتب على الجدار:

– "بعض الموتى يُغلقون أعينهم حتى لا يَراهم العدو ضعفاء."

"حين صار الجوع أستاذًا في الذاكرة"

منذ موت"خالتي حَدّه"، صـار البيت الذي تركته خلفها يشـبه فمًا مفتوحًا لا يعرف كيف يبتلع الهواء.

الحيُّ كلّه مرّ أمام بابها، لا بالعزاء، بل بنظرة طويلة تَجمع الحزن والخوف والاعتياد.

الجوع صــار هو المعلّم الوحيد في الأزقة. علّم النســاء كيف يخفين البكاء تحت الخمار.

علّم الرِّجال كيف يحفرون القبور بنظراتهم، قبل أن تصل الميتة.

وعلّم الأطفال كيف يفتّشون في الذاكرة بدل الصحون.

الطّاهر صار لا يسأل عن الطعام. صار يسأل عن قصص الموتى.

يسأل أمه: – "أين دُفن محمود الصغير؟ "

– "في حقل الشعير."– "وهل سيُثمر الحقل؟ "

– "ربما إن سقطت عليه دموع كافية."

ثم يسأل جده:

– "هل"خالتي حَدّه" كانت تحفظ القرآن؟ "

– "جزء عمّ فقط."

– "إذًا حين ماتت، كانت تحفظ النازعات؟ "

– "نعم."

– "يعني أنها عرفت كيف تُسلّ روحها دون ضجيج."

في أحد الأيام، حمل"الطّاهر" حجرة صغيرة، نقش عليها بخيط من الفحم:

– "حدّة بنت علي... أم الجوعى."

ثم دفنها عند شجرة التين خلف البيت.

لم يُرد قبرًا، بل علامة ضد النسيان.

قال لأمه: – "إذا نسـينا أسـماء من ماتوا جوعًا، فسـيموت مَن بعدهم بلا اسم ولا ظل."

الجوع لا يُعلن عن نفسـه. يبدأ كصـفير في البطن، ثم يتحوّل إلى صـفير في الروح. يأكل الرغبة في الحكي. يفرّغ النظرة من معناها.

يمحو حتى الشــعور بالعيب. في أحد الأيام، رأى"الطّاهر" ولدًا في عمره يسرق قشرة برتقال من حمار ميت.

لم يوبّخه. لم ينظر له بازدراء.

بل نظر إلى البرتقالة وقال:

– "حتى القشـر صـار كنزًا... وكأنَّنا نعيش في عصـرٍ لا يعرف فيه أحد طعم الفاكهة إلا من سرقها من بين فكيّ العفن."

وفي دفتره الصغير، كتب الطّاهر:

– "في سـنة المجاعة، ماتت اللغة أيضًـا... وصـار الناس لا يتحدثون إلا بالعيون، وبعدد اللقمات في اليد."

"عندما تغيّر شكل الناس"

في أواخر فبراير، لاحظ"الطّاهر" أن الوجوه بدأت تفقد ملامحها.

لم يكن ذلك مجازًا. بل حقيقة بسيطة:

– الناس الذين يجوعون طويلاً، لا يشبهون أنفسهم.

الرِّجال صاروا أكثر انحناءً، ليس من التعب فقط، بل من ثقل الخيبة.

الأمَّهات، اللاتي كنّ يشبهن زيت الزيتون في سخونة اليد، صرن كأنَّهن سلال قشّ فارغة لا تحمل إلا الهواء.

حتى الأطفال... اختفى منهم الضجيج.

الحيُّ الذي كان في السابق ينضح بأصوات الملاعق، ومناوشات الطين، والشتائم الصغيرة، صار مثل مقبرة يتبادل فيها الناس النظرات بدل السلام.

في أحد الأيام، دخل"الطّاهر" بيت عمّه، فوجد أمه تجلس على الأرض، تبكي دون صوت، بينما أمامها قِدر مغلقة. لم يكن في القدر شيء.

كانت فارغة، لكنها غطّتها كان فيها وليمة.

جلس بجانبها، لم يُقاطع دمعتها.

فقط همس:

– "حتى الجوع... أصبح شيئًا نخجل منه؟ "

ردّت فاطمة:

– "نخجل من ألا نُشبعك."

فقال الطّاهر، وقد اكتشف شيئًا يشبه الحقيقة:

– "أنتِ تُطعمينني منذ شهور... لكن ليس بالطعام."

ثم، كما يفعل الكبار، حمل"الطّاهر" الدفتر الذي يُخبّئه في صـــدريّة ثوبه، وكتب:

– "الأمَّهات لا يجُعن مثلنا... لأنهنّ يقتســمن أجســادهنّ على صــمت أبنائهن."

– "رأيت أمّي تضــع الخبز في الحلم، وتُوزّعه علينا، وتســتيقظ وهي تُقَبل يدها كأنَّها كانت تُمسك بطعامٍ حقيقي." حتى المساجد تغيّرت.

لم تعد مزدحمة كما كانت. منهم من صــار لا يذهب كي لا يضــع وجهه على الحصير الخالي من العطر.

ومنهم من ذهب فقط ليبكي وهو ساجد، لا ليدعو.

وصار الإمام يُكثر من تلاوة:

– "وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ..."

لكن"الطّاهر" كان يسمعها بصيغة أخرى:

– "وفي الموت رزق من لا يُذكر."

وفي طريق العودة من المســجد ذات مســاء، وجد ورقة قديمة معلّقة على حائط المدرسة المغلقة، فيها طابع الاستعمار.

قرأها بصمت، ثم قال لنفسه: – "هم يكتبون كثيرًا... لكنهم لا يعرفون كيف يُرَمِّمون قلبًا جائعًا."

ثم كتب أسفلها بخط الفحم:

– "هنا مات طفل... لا لأنه مريض، بل لأنه لم يعد يرى الخبز في المنام."

ماتَ الطّفلُ لا سُقْمًا ولا داءً ***بلْ جوعًا أطفأَ الحُلمَ والرّجاءَ.

"توأم على الورق... للخبز لا للفرح"

في يوم بارد من آذار، بينما كانت فاطمة تخبّئ عظام الدجاج في موقد الطين لتغليها للمرة الثالثة، دخل يوسف، الأب، يحمل في يده ورقة رسمية قديمة، خضراء الحواف، مختومة بختم الاحتلال.

عيونه فيها مكر صامت، وابتسامة لا تشبه الفرح، بل تشبه نكتة حزينة تُقال أثناء العزاء. قال للطاهر:

– "وُلد لعمّك ولد اليوم."

– "وسمّاه؟ "

– "لا يهم الاسم... ما يهم أنني قلت لهم إنه وُلِد له توأم."

حدّق"الطّاهر" في أبيه.

– "لكن لم يُولد إلا واحد!"

– "نعم... لكن في الأوراق الآن، صاروا اثنين."

جلس الأب، وأخرج علبة صفيح فيها بقايا أوراق مستعملة، رسم على ظهر إحداها دائرة ومربعًا.

ثم قال: – "في زمن المجاعة... كل مولود يُسجَّل مرتين، كي نحصل على ضعف ما يُرمى لنا من فتاتهم."

ثم أضاف وهو يغمز:

– "نحن لا نكذب عليهم... نحن فقط نخلق من جوعنا شخصًا إضافيًا."

نظر"الطّاهر" إلى الورقة، ثم همس:

– "يعني أن التوأم ليس له جسد... لكن له فم يأكل؟ "

ضحك الأب:

– "بل له اسم، ورقم، وظلّ على الجدار، وصوت في سجل الطحين... وهذا يكفي."

في ذلك اليوم، ذهبت فاطمة لتأخذ "حصّة التوأم" من الإدارة الفرنسية.

وقفت في الطابور، بين نساء لا ينظرن إلى بعضهن، فقط إلى أكياس الطحين خلف الزجاج.

وعندما جاء دورها، ناولها الجندي الكيس قائلاً:

– "طفلان؟ ... مبروك." لم تردّ.

فقط حملت الكيس على ظهرها، كأنّها تحمل حياةً من ورق.

وعندما عادت، قال لها الطّاهر: – "أين الطفل الآخر؟ "

فقالت: – "نائم... لا توقظه. هو نحيف جدًّا، لا يتحمّل الكلام."

ثم نظرت بعيدًا، وقالت كمن يتحدّث إلى الغيب:

– "نحن لا نكذب... نحن نبحث عن طريقة جديدة لنبقى أحياء في بلادٍ تكتب أسماءنا بالقلم وتمحو أجسادنا بالجوع."

وفي دفتره، كتب"الطّاهر" مساءً:

– "في عام المجاعة، صارت الولادة ثورة. وصار الطفل الثاني خيالًا له فمٌ... لكنه لا يبكي."

"أسئلة الجائع التي لا تُكتب في المدرسة"

في أحد الصباحات الرمادية، حيث كانت الشمس تُشبه قرصًا نحاسيًّا صدئًا فوق قرية من الغبار، جلس"الطّاهر" قرب الحائط الطينيّ للبيت، يراقب خيطًا من النّمل يخرج من بين الشقوق.

كانت النّملة الأولى تحمل قشرة تمر صغيرة.

الثانية تحمل شعرة.

الثالثة... لا تحمل شيئا، لكنها تمشي. قال لنفسه:

– "حتى النمل لا يموت من الجوع... يمشي أكثر.. فقط."

دخل جدّه، الحاج بَنْسعيد، حاملاً دلوًا من الماء الموحل، جلس قربه، وتنهّد:

– "عندما كنت في مثل عمرك، كانت لنا سبع نخلات... اليوم، لا واحدة تثمر."

– "لماذا؟ "

– "لأن الجذر لا يشرب إلا إذا وثق أن الغصن لن يُقطَع."

ثم نظر إليه طويلاً، وسأله:

– "هل تخاف الجوع، يا طاهر؟ "

أجابه:

– "لا... أخاف أن أموت دون أن يعرف أحد أنني كنت جائعًا."

أخافُ المماتَ وجوعي خفيٌّ***فلا يُدرِكُ الناسُ ما قد عَنيتُ

في ذلك اليوم، فُتحت المدرســـة الفرنســـية في القرية فجأة، وزّع الجنود منشورات كتبوا فيها:

– "التلاميذ الذين يحضرون، سيحصلون على وجبة صغيرة."

لم تكن وجبة. كانت قطعة من خبز كالحديد الصـــلب، مدهونة بطبقة من دهن خفيف لا يُعرف مصدره.

ذهب بعض الأطفال. لم يذهب الطّاهر.

سألته فاطمة:

– "لِمَ لم تذهب وتأخذ حصّتك؟ "

قال وهو يربط حذاءه المهترئ بخيطين:

– "لأنهم لا يُطعمونني... بل يختبرون عدد اللقمات التي يمكن أن تقتلني دون أن أنطق."

وفي اللّيل، سمع والده يقول لأحد الجيران:

– "الفرنسي لا يريد أن يُشبعنا... بل يريد أن يرى كيف نتنازل عن أسمائنا مقابل رغيف."

يُساوِمُنا الخُبزَ اللئيمُ بسمعتِنا *** فَنَأْبَى، وعِزُّ النَّفسِ فينا مُؤَسَّسُ

كتب"الطّاهر" على لوحه الطيني:

– "نحن لا نأكل لكي نعيش... نحن نأكل لكي لا نموت بالطريقة التي يريدها المستعمر."

وفي صباح اليوم التالي، وجد على باب المدرسة ورقة مكتوبة:

- "الطّاهر يوسف — غائب عن الدّرس."

ابتسم، واقترب من الحائط بجانبها، وكتب بفحمة سوداء:

- "الدرس الحقيقي... ليس هنا."

"حساء الدولة... ومرق الجوعى"

في يوم خميسٍ غائم، رُوّج في القرية خبر مفاجئ:

أن الإدارة الفرنسية ستوزّع "مرقًا ساخنًا" على الفقراء أمام مركز البلدة، بإشراف ضابط وممرضات أوروبيات. [1]

الناس، الذين لم يتذوقوا شيئًا مطبوخًا منذ أسابيع، توافدوا على استحياء.

لم يحملوا صحونهم... بل حملوا عيونهم، وجروحهم، وأسماء موتاهم.

الطّاهر ذهب مع أبيه.

كان الواقفون في الصف يشبهون أشجارًا جرداء مصطفّة للقطف، بلا فروع ولا جذور.

---

[1] هذا أسلوب قديم متجدّد تتّخذه سلطات الاحتلال لإذلال الشعوب المستعمرة وكسر إرادتها ببعض الخبز أو ما يسمونه المساعدات الإنسانية وذلك لإسكات الأصوات الدولية والمنظمات الحقوقية وما أمر أهل "غزة" ببعيد، حيث قرّرت سلطات الكيان الصهيوني وضع مراكز للمساعدات الإنسانية بإشراف مؤسسات أمريكية وحراسة إسرائيلية يوم 27 /2025/05، برفح جنوب القطاع، لتهجير الفلسطينيين من شماله وسطه، لكن الشعب الفلسطيني أجهض هذه الخطة بإجهازه أمواجا بشرية دفعة واحدة على هذه المقرات وتفكيكها؛ مما جعل الأمريكيين يفرون منها ويتدخل الجيش الجبان بإطلاق الرصاص الحي على المدنيين وأوقع بينهم شهداء وجرحى، وسقط القناع وأجهضت الخطة كسابقاتها.

وصل الدور إلى الأب، مدّ إناءً حديديًّا صدئًا.

صبت فيه إحدى الممرضات مغرفة صغيرة من السائل الرمادي، لا لحم فيه، لا نكهة، لا لون.

همس الأب: – "هذا ليس مرقًا... بل ماء اعتراف."

سأله الطّاهر: – "اعتراف بماذا؟ "

– "بأننا أحياء فقط لأنهم يسمحون لنا أن نكون كذلك... ليوم واحد."

جلسا على حافة الرّصيف.

أخذ"الطّاهر" رشفة. كان الطعم أقل من أن يُقال عنه طعام. لا هو مرّ ولا مالح... فقط شيء ساخن يدّعي أنه طعام.

قال الأب:

– "هذا المرق... يشبه الكلمات التي نُجبر على سماعها في إذاعتهم. بلا روح. بلا معنى. فقط تُملأ بها المعدة حتى لا نصرخ."

مرقٌ ككلماتِ العدوِّ، بلا روحٍ***يُسكتُ الجوعَ، لا يُطفئُ الجراحَ.

ثم وضع الإناء جانبًا وقال: – "لن آكله."

الناس حولهم منهم من أكل، ومنهم من بصق، ومنهم من بكى وهو يبلعه.

قال الطّاهر، وهو يراقب العيون المنخفضة:

– "حتى الجوعى انقسموا... بعضهم جاع في الصدر، وبعضهم في المعدة فقط." ثم قام، وسكب ما بقي من الإناء على التراب، وقال:

– "إن شبعنا بهذا... سنجوع أكثر غدًا، لأننا سنألف الذلّ."

في الطريق إلى البيت، سألته أمه:

– "أشبعتم؟ " فأجاب الطّاهر:

– "لا... لكنني عرفت اليوم طعم المهانة الساخن."

ثم كتب في دفتره: – "المســـتعمر يطبخ لنا مرقة... لكننا نحن من نغلي فيها."

يُسَعِّرُ قدْرًا من مَرَقٍ ثمَّ يَترُكُنا***نَغْلي كأنّا اللحمُ فيهِ ونُلْتَهَمْ

"حفلة خبزٍ بلا خبز"

في إحدى ليالي مارس، دعا الجار مبروك بعض الجيران إلى "وجبة خاصة".

قال بصوتٍ عالٍ أمام الباب:

– "اللّيلة، نُبدّد الجوع... ونضحك عليه."

فكّر الطّاهر: "إذًا نحن الآن نأكل الجوع؟ أم نطبخه؟ "

ذهب الأب مع الطّاهر، لا حبًّا في مبروك، بل حبًّا في احتمال أن يُفاجَئ.

البيت كان مظلمًا، لا نور فيه إلا من قنديل يتدلّى من ســقفٍ مائل كأمنية أرملة.

جلسوا جميعًا حول مائدة مستديرة، مغطاة بقماش خشن، وفي المنتصف صحن كبير... فارغ.

نعم، فارغ.

قال مبروك وهو يصفّر بإصبعيه كأنّما يُعلن افتتاح وليمة السلطان:

– "تفضـــلوا... هذه بركة أمّي التي ماتت جوعًا، لكنها كانت تطبخ الهواء لنا على شكل حساء!"

ضحك هو وحده.

الباقون نظروا إلى بعضـــهم بصـــمتٍ، لكنهم جلســوا، كأنَّهم يشــاركون في جنازة جماعية لنكتة غير مضحكة.

وضع مبروك أمام كل ضيف ملعقة، لا صحون.

ثم قال: – "اللّيلة، نأكل مما نتمنى."

ردّ عليه رجل عجوز:

– "يعني نُشـــبع أنفســـنا بالكذب؟ " فقال مبروك، وهو يضـــع الملح في الصحن الفارغ:

– "أحسن من أن نشبعهم بالاستسلام." رفع كل واحد ملعقته...

بعضهم وضعها في فمه، كأنَّما يذوق ذاكرة الخبز فقط.

أما الطّاهر، فقد قضم الملعقة نفسها، حتى سال من شفتيه دم خفيف.

قال أبوه:

– "ماذا تفعل؟ "

أجابه الطّاهر، ساخرًا:

– "إن لم يكن هنـاك خبز... فلنـأكـل الملعقـة على الأقـل. فيهـا طعم الحديد... والاحتلال يحب الحديد."

ضحك مبروك هذه المرة من قلبه، وقال:

– "هذا الولد أخطر من الجوع... عنده لسان لا يُؤكل، لكن يقطع."

قبل الانصراف، كتب"الطّاهر" على الحائط الداخلي للبيت:

– "في حفلة مبروك... شبعنا من لا شيء، فعدنا أكثر جوعًا."

وفي طريق العودة، همس الأب:

– "على الأقل ضحكنا قليلاً."

فرد الطّاهر: – "ضحك الجائع لا يُشبعه... لكنه يُخيف العدو أكثر مما تفعل بندقية صامتة."

"الخبز الذي لا يُرى... والمواعظ الدسمة"

في أحد أيام الجمعة، وقف الإمام في مسجد القرية، وهو يجلجل بصوته كالعادة، يقطّع الآيات والأحاديث بين السعال والكلام الفخم.

قال في خطبته:

– "اصبروا على الجوع، فالصبرُ مفتاح الفرج. وقد كان النبي يربط الحجر على بطنه... ونحن أحفاد النبي!"

هزّ الناس رؤوسهم، نصفهم خشوع، والنصف الآخر دوخة من الجوع.

كان"الطّاهر" جالسًا في الصف الثالث، بين عجائز لا يرفعون رؤوسهم من الأرض.

همس في أذن جده:

– "إذا كان النبي ربط حجرًا... فكم حجرًا علينا أن نربط لنصل لمرتبة أولياء الله الجدد؟ "

ضحك العجوز بصوتٍ مبحوح، وقال:

– "سنحتاج إلى جبلٍ كامل من الحجارة... واسمه هذه المرة: فرنسا."

بعد الصـــلاة، خرج الإمام يوزّع "مواعظ ما بعد الخطبة"، وهي عادة مستحدثة، قال إنها "للطمأنينة الروحية".

كان يقول للناس: – "المؤمن لا يجوع، قلبه مشبع بالإيمان."

– "وإذا مات جائعًا، فربّه أطعمه خيرًا في الجنة."

سأله رجل نحيل:

– "والجنة هل فيها خبز؟ "

ردّ الإمام بسرعة: – "نعم، بل فيها خبز لا يعفن ولا يُختَزن."

ضحك"الطّاهر" وقال بصوت يسمعه القريبون:

– "يعني الفرنسي لن يصل إليها، لأنه يخزّن خبزنا في ثكناته."

في مساء ذلك اليوم، قالت فاطمة لزوجها:

– "الإمام قال إن الجوع امتحان."

فرد يوسف وهو ينفض الرماد عن الموقد البارد:

– "صحيح... لكنهم يُجرون الامتحان علينا، ويأكلون النتيجة في بيوتهم."

ثم مدّ يده إلى جرّة في الزاوية، وأخرج نصف رغيف جاف، خُبِئ منذ أيام.

ناوله للطاهر وقال: – "كُل... هذا من بقايا صـــديقك الإمام. جاءنا خفية ليلة البارحة، وقال إنه جائع."

أخذ"الطّاهر" اللقمة بيده، ثم وضعها على الطاولة دون أن يعضّها، وقال:

- "الخبز الذي نأكله من أيدي الجبناء... لا يشبع."

وفي اللّيل، كتب على جدار الحجرة بفحمة:

- "هناك خبز لا يُرى... لكنه يُؤكل يوميًّا على حساب من سكتوا وهم يعرفون."

"منابر الشبع... ووجوه لا تعرف الحياء"

في مساءٍ مائل إلى الصقيع، وقف رجل من علية القوم في ساحة القرية، لابسًا جلابة جديدة تفوح منها رائحة الكافور، يحيط به ثلاثة من "المريدين" الذين ينادونه بـ"الحاج اسّي الحاج".

قال بصوت رخيم، عريض مثل قوائم الخيمة:

- "اصبروا يا جماعة... فهذه الأيام، أيام تمحيص! واختبار لنا من عند الله.

وقد قيل: من يصبر على الجوع، يَدخل الجنة من باب اسمه بابُ الصابرين."

نظر إليه أحد الفقراء الواقفين، وكان ثوبه مرقّعًا بأكمام قميص قديم، وقال ببراءة لا تخلو من حنق:

- "لكن يا اسّي الحاج... أنت تقول هذا وفمك يفوح منه زبد البقر وكسرة الخبز الطري."

ضحك الناس، فهتف أحد المريدين:

- "احذر! لا تتكلم مع شيخنا بهذه الطريقة!"

ردّ الطّاهر، واقفًا من آخر الصف:

- "لا بأس، دعه يتكلم... فالجوعى لا يملكون إلا الكلام. وأما الشبعان، فله حديث الصحون."

اقترب اسّي الحاج من الطفل، وانحنى عليه وقال:

- "يا بُني، الصبر مثل البئر... من حفره بيده، شرب منه."

فرد"الطّاهر" بابتسامة هادئة:

- "جميل... لكن بعض الناس يشربون من بئر غيرهم، ويتركونهم يموتون من العطش، ثم يُعلّمونهم الصبر في خطبة يوم الجمعة."

في طريق عودته من الساحة، همس الجدّ في أذن الطّاهر:

- "هل تخاصم الشيوخ؟ "

فقال:

- "لا أخاصمهم... لكني أميّز بين من يُعلّمنا الصبر، ومن يُتاجر به."

ثم أضاف وهو ينظر إلى النخلات العاريات في الأفق:

- "الشجرة التي لا تُثمر... لا يجب أن تصعد فوقها لتخطب."

وفي ذلك المساء، اجتمعت النسوة في بيت فاطمة، يتبادلن الحكايات حول "المنح الغذائية" التي وُزّعت سرًا على خاصّة القوم، بينما الباقون يتسابقون على الدقيق الفاسد.

قالت إحداهن، ووجهها نصف ضاحك نصف منكسر:

- "قالوا لنا: لا تخافوا... فالله يُرزق من يشاء. ونسوا أن الأرزاق تُخزَّن في قبو اسّي الحاج."

ضحكت النسوة، ثم خيم صمت طويل، كان الضحكة انزلقت من جرف الحقيقة.

في اللّيل، كتب"الطّاهر" على جدار الحجرة:

– "أخطر الناس ليس الجائع... بل من يتحدث عن الجوع وهو يُخفي الخبز تحت عباءته."

"من زهد في قومه، لا يُؤتمن على إمامته"

في صباحٍ بارد، استيقظ أهل القرية على صوت طبل صغير يُقرَع عند الباب القديم للمسجد.

خرج"الطّاهر" متثاقلاً من فراشه المصنوع من القش، فرآهم: وفد من "الزاوية الكبرى" قادم من المدينة، راكبين بغالًا سمانًا، ينزلون من العربة الفرنسية السوداء، ويُلّوحون بالسبحات كما لو كانوا يملكون مفاتيح الغوث من السماء.

نزل شيخهم — الشيخ الزاهد سيدي الهادي — بثوبه الأبيض الناصع، حذاؤه من جلد ناعم، يشبه الكتب التي لا تُقرأ إلا في المكاتب الفرنسية.

قال بصوت رخيم:

– "جئنا نُذكّركم بأن الدنيا دارُ فناء، فلا تنشغلوا بالمعدة... واملؤوا القلب!"

ضحك"الطّاهر" بينه وبين نفسه:

– "نعم... المعدة لا تدخل الجنة، لكن يبدو أن بطونهم دخلت السفارة الفرنسية قبل أرواحهم."

تقدّم أحد الشيوخ البُسطاء، وقال:

– "مولانا... أولادنا يأكلون أوراق التين، والنسوة يطبخن الرماد، فماذا نفعل؟

ردّ الشيخ مبتسمًا:

– "اذكروا الله كثيرًا... فالجائع الذي يُسبّح لا يشعر بالجوع."

فردت عليه امرأة من آخر الحضور:

– "ونحن نسبّح كثيرًا... لكن لا نسمع إلا صوت البطون."

في المساء، أقام الشيخ "حلقة ذكر" أمام ساحة المدرسة المغلقة، جلس الرِّجال يتمايلون ويهتفون: "الله... الله"[1]، بينما على بعد أمتار، كانت رائحة الحساء تأتي من خيمة الجنود الفرنسيين، حيث أُعدّ "طعام خاص للوفد الروحيّ".

سأل"الطّاهر" خاله الذي كان يراقب المشهد:

– "هل الذكر الآن يُقام على إيقاع الرائحة؟ "

فردّ خاله:

– "ربما الذكر الحقيقي اليوم، هو أن تتذكّر أنك تُخدع... ولا تسكت."

في اللّيل، جلس الشيخ سيدي الهادي في بيت أحد الكبار، يأكل الخبز الأبيض، ويشرب حساء العدس المطهو بالسمن.

---

(1) يسمى هذا عند طائفة من المتصوفة الطرقيين بالذكر المفرد، وأكثر العلماء يرون أن الذكر بالاسم المفرد مثل "الله، الله" أو "هو، هو" ليس مشروعًا، بل يعتبر بدعة، لأنه لا يوجد دليل عليه في كتاب الله أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

قال وهو يمسح فمه بالمنديل المطرّز:

– "نحن لا نأكل للشبع، بل للعبادة. فنحن نُغذّي الجسد كي نقوى على العبادة."

سمعته فاطمة من خلف الباب، وهمست لابنها:

– "هذا لا يصوم... لكنه يُفطِر على ظهورنا."

وفي دفاتره، كتب"الطّاهر" في الصفحة الأخيرة:

– "بعض الزّهاد... لا يزهدون في الدنيا، بل يزهدون في شعبهم، ويستبدلونهم برضا الحاكم."

– "وإذا رأيت شيخًا يأكل في حضرة المستعمر... فاعلم أن ذكره مرهون بالملعقة."

"سيدي القايد... حامي الدقيق وناهب الرُقَع"

ذات صباح، استيقظت القرية على خبر غريب:

القايد — ممثل الإدارة الفرنسية في المنطقة — قرر توزيع "مساعدة عاجلة" من الدقيق والملح والزيت.

لم يكن الخبر مفاجئًا بحدّ ذاته... لكن المفاجأة كانت في أن التوزيع سيُشرف عليه "هو بنفسه"، لا أحد سواه.

قيل إنه قرر ذلك "رحمةً بالرعية".

وقال هو، في خطابه أمام الجمع:

– "جئت لأتأكّد أن كل محتاج يأخذ نصيبه... فأنا لكم بمقام الأب الرحيم."

ضحك"الطّاهر" في داخله:

– "أبٌ ينام في بيتٍ من حجر مصقول... ويمنح أبناءه ملعقة صدئة من قعر الصاع."

وقف الناس في صفٍ طويل كطابور العزاء.

كل واحد منهم يُمسك ورقة "اعتماد الفقر"، مختومة بختم القهر، موقّعة من "شيخ الحي"، ذاك الذي لا يعرف الجوع إلا في الكلمات التي يلقيها على سمع أسياده.

كان القايد يجلس على كرسي خشبي مرتفع، أمامه ميزان حديدي كبير، وكان الحصص ليست غذاء، بل جزاءات في محكمة لا تعرف العدل.

اقتربت امرأة عجوز، وجهها شاحب كظلّ غيمة، ناولها مساعد القايد كيسًا صغيرًا، فنظرت فيه وقالت:

– "هذا لا يكفي لثلاثة أيام." فردّ القايد مبتسمًا:

– "قسّميه على ستة... تزداد البركة."

اقترب"الطّاهر" من الصف، يراقب، يدوّن، لا يطلب شيئًا.

سأله أحدهم: – "ألن تأخذ نصيبك؟ "

فردّ: – "نصيبي أخذه القايد قبل أن يأتي."

ثم أضاف: – "كيف أقبل أن يطعمني من سرق اسمي ووزّعه على قائمة ذلٍّ يُقال عنها إحسان؟ "

في آخر الطابور، وقف اسّي المبروك — أحد أتباع القايد — يصيح:

– "من لم يحمد الله، فلن يأخذ شيئًا!" ردّ عليه الطّاهر:

– "الله لا يُهان إذا لم نمدح القايد."

تجمّد المبروك في مكانه، بينما تناثرت ضـــحكات خفيفة من أفواهٍ جافة لا تضحك إلا حين تثور دون تصريح.

في المساء، كتب"الطّاهر" على جدار المدرسة المهجورة:

– "سيدي القايد لا يطعمنا... بل يُذكّرنا كل مرَّة أن الذي يُطعِمك يستطيع أن يُجَوّعِك أكثر."ثم خطّ تحته بخط أكبر:

– "الجائع الصامت عبد... والجائع الساخر يُخيفهم." هكذا صرخت غزة في أقداح الغزاة.

"الخبز الذي يُوقّع المعاهدات"

في أحد الأيام، دخل رجل ضخم الجثة إلى ساحة القرية، يحمل على كتفه كيسًا صغيرًا من الدقيق، مربوطًا بخيط أحمر.

كان وجهه مألوفًا..."سي البشير" — أحد رجال الإدارة، وكان بالأمس فقط يُقال إنه عدوٌ للفقر، واليوم صار حليفًا له.

أقام "اجتماعًا مفتوحًا" للناس أمام شجرة التوت القديمة، جلس على حجرٍ، كأنَّه نبي نزل من جبل المجاعة، وأخرج من جيبه دفترًا صغيرًا.

قال بصوت رخيم:

– "من يُوقّع هذا الدفتر، يأخذ دقيقًا أسبوعيًا."

سأله أحد الحاضرين، وقد التصق خده بعصاه من التعب:

– "ماذا نوقّع؟ "

قال بابتسامة صفراء:

– "بيان ثقة. نُعلن فيه أننا نثق بالإدارة الفرنســـية، ونرفض أفكار التمرّد والتحريض."

ضحك"الطّاهر" من حيث كان واقفًا.

ضحكته لم تكن قوية، بل ساخرة خفيفة، كصفعة من طفلٍ لجدار.

اقترب، وقال:

– "يعني... نأخذ الخبز على أن نُسلّم لُغتنا وموتانا وكلماتنا؟ "

ردّ اسّي البشير:

– "من لا يوقّع، فليأكل الصخر. لن يُعطى شيء."

صمت الجمع. بدأت العيون تتبادل النظر.

بعضـــهم خطا خطوة للأمام... بعضـــهم للخلف... وبعضـــهم بقي في المنتصف، ممزقًا بين الجوع والعار.

ثم تقدّمت امرأة عجوز — اخديجة، أرملة شهيد من زمن الأمير عبد القادر — وقالت وهي ترفع عكازها:

– "أنا وقّعت بالأمس لأجل الوطن... فهل أوقّع اليوم لأجل رغيف؟ لا والله... ليأخذوا الدقيق ويُطعِموا به فئرانهم."

ثم بصقت قرب قدم اسّي البشير، وقالت:

– "أنتم لا توزّعون طحينًا... أنتم تستخرجون الذلّ من قمحنا القديم."

أراد البشير الرد، لكن فاطمة اقتربت منه، وقالت:

– "من يأخذ خبزك، قد ينام يومًا... لكن من يأخذ توقيعك، لن ينام أبدًا."

في تلك اللّيلة، جلس"الطّاهر" عند الجدار، وكتب:

– "لم يكن الخبز هو القضية... بل كانت القضية: كم نساوي؟ وما الذي يُمكن أن نبيعه فينا قبل أن نموت؟ "

ثم كتب تحته: – "الجوعُ موت... أما من يوزّع الموت مشروطًا بالتصفيق، فهو السفّاح بربطة عنق."

"مدرسة الانحناء الرسمي"

في إحدى الزوايا القديمة من القرية، حيث يُقال إن الإمام الأول دُفن قبل مئة عام، افتتحوا "خيمة الإعانة" بإشـــراف رجال الإدارة وبعض شـــيوخ الطرق الصوفية الذين يلبسون عباءات أعرض من أبواب بيوتهم.

كان الدخول إلى الخيمة يتم على دفعات.

كل من يدخل، يُسأل سؤالًا واحدًا:

– "هل تدين بالولاء للدولة الفرنسية، وتتبرأ من أفكار التمرد؟ "

ثم، إن أجاب بـــــ"نعم"، يُعطى كيسًا صغيرًا من الدقيق، وعلبة من السكر المغشوش.

وإن صمت... يُنظر إليه كما يُنظر إلى من يخبّئ قنبلة داخل معدته.

الطّاهر وقف عند باب الخيمة، يراقب بصمت.

كان يرى الرِّجال يدخلون مرفوعي الرؤوس، ويخرجون منحنين كان شـــيئًا سُحب من عمودهم الفقري.

سأل جدّه:

– "لماذا لا يرفع أحدهم رأسه عند الخروج؟ "

فردّ بصوتٍ خافت:

– "لأنهم أكلوا خبزًا ثقيلًا... ثقيلًا ليس لأنه مشبع، بل لأنه مُحمّل بالشبهة."

دخل أحد الوجهاء المعروفين في الحيّ، "اسّي قدور"، وكان قبل المجاعة يُنظّر عن الكرامة في المجالس.

اليوم، دخل الخيمة بخطوات هادئة.

وعندما خرج، كان في يده كيس من القمح، وعلى وجهه ابتسامة مصطنعة، تشبه تلك التي تخرج من فم شخصٍ تُصوّره الكاميرا دون علمه.

مرّ بجانب الطّاهر، وقال له:

– "الحياة أولى من الكبرياء يا ولدي."

ردّ"الطّاهر" بهدوء:

– "بل الحياة لا تستحق أن تُعاش إذا أُسّست على خيانة الكرامة."

سُمّيت الخيمة لاحقًا في أوساط الناس بـ\\"خيمة الركوع"\\.

وصار يُقال عن كل من أخذ منها شيئًا: "سجد هناك، وعاد مشبعًا بالصّمت ."

في اللّيل، سأل"الطّاهر" أمّه:

– "هل من السيئة أن نأخذ خبزًا ونسكت؟ "

فأجابته:

– "ليس السيئ من يأخذ ليسدّ جوعه... بل من يأخذ ليُغلق فم غيره."

ثم أضافت، وهي تضع يدها على قلبه:

– "لا تفتح فمك لتأكل، إن كنت ستغلقه حين يُطلب منك أن تقول الحق."

وفي دفتره الطيني، كتب الطّاهر:

– "أخطر من المحتل، هو من يُقنعك أن الخبز لا يُؤكل إلا بعد موافقة الجنرال."

"الجوع كعقيدة جديدة"

في ساحة المدرسة المغلقة، اجتمع رجال الحي بعد أن نُشر بيانٌ من الإدارة، موقّع من أحد القوّاد المحليين، يطلب فيه من السكان ما يلي:

– "الامتناع عن ترديد الشائعات التي تربط الجوع بالسياسات الفرنسية."

وكان نص البيان واضحًا، لكنه مصوغ بلهجة مهذبة:

– "الجوع ناتج عن الظروف الطبيعية، ونقص الأمطار، وسوء التدبير المحلي، ولا علاقة له بالإدارة الفرنسية التي تظلّ ضامنة للسلم والتموين."

قرأ"الطّاهر" البيان على جدار المدرسة، ثم قال لأبيه:

– "يعني، حتى الجوع صار عندهم ظاهرة طبيعية... مثل البرد؟ "

ردّ يوسف، وهو يضحك ضحكة صفراء:

– "كل شيء يصير طبيعيًا حين تكتبه السلطة، حتى الموت الجماعي."

بعدها بأيام، انتشر بين الناس ما يُشبه "الفتوى الجديدة"، أطلقها بعض من سمّوا أنفسهم "أئمة الواقعية"، قالوا فيها:

– "من يُصبر نفسه على الجوع دون أن ينتقد السلطان، فله أجر شهيد."

ضحك"الطّاهر" وهو يسمعها من أحد المارة، وقال:

– "إذًا نحن في الجنّة من الآن؟ فقط علينا أن نموت بهدوء... وبأدب."

ثم حدث شيء أغرب:

بدأ بعض الشيوخ يجمعون تبرعات باسم "الولاء"، لتقديم هدايا رمزية للقائد الفرنسي في الثكنة المجاورة، عرفانًا منه "لحرصه على الأمن رغم شُحّ الموارد".

رأى"الطّاهر" رجالاً يبيعون خواتم زوجاتهم، نساءً يخلعن أساور البلاستيك المهترئة، وأطفالًا يتبرّعون بأزرار قمصانهم، فقط ليضعها الشيخ في سلة واحدة... تُقدَّم لقاتلهم كعلامة امتنان.

في خلوته تلك اللّيلة، كتب الطّاهر:

– "صار الجوع دينًا... وصار الجائع مرغمًا على شكر جلاّده لأنه لم يقطع لسانه أيضًا."

– "نحن لا نُحارب الجوع، بل نتعلّم كيف نصير عبيدًا باسمه."

ثم خطّ تحتها بسواد الفحم:

– "الاستعمار لا يريد موتنا... بل يريدنا أحياءً، نرفع له أيادينا كلما أحضر لنا حبة عدس."

– "إنه يريد تهجيرنا إلى أي مكان في العالم غير الأرض التي غرسنا فيه.."

– "لن يقتلعنا حتى يقتلع جميع أشجار الزيتون التي غرست قبل أن يكون له كيان..نحن هنا باقون ما بقيت السماء الأرض.."

"حين أكلت الأرض أبناءها... واحتفظت بأسمائهم"

في أواخر ربيع العام، حين لم يعد للأشـــجار ظلّ، ولا للخبز صـــوت في الأحلام، وقف"الطّاهر" في منتصف الحقل المجاور للبيت، حافي القدمين، يقف فوق التراب كمـا يقف النبي على البحر، ينتظر الوحي... أو الزفير الأخير للأرض.

كان وجهه شاحبًا، ليس من الجوع، بل من فرط الفهم.

لم يعد الطفل الذي يسأل متى نأكل. صار الطفل الذي يسأل:

– "متى نتوقّف عن شكر من سرق طعامنا؟ "

أخذ عصًا يابسة من الأرض، وراح يحفر بها حفرة صغيرة.

ثم وضع فيها حجرة، وكسرة طين جاف، وقطعة قماش بالية كتب عليها:

– "الذين مـاتوا هنـا... لم يُقتلوا، بل تُركوا ليذبلوا مثل النعنـاع حين يُمنع عنه الضوء."

ردمها، ثم وقف فوقها، وقال بصوتٍ لا يسمعه أحد:

– "أنا الشاهد الذي لم يمت... لكن الجوع علّمني لغة الموتى."

مرّ أحد رجال الحي، وقال له:

– "ما تفعل؟ "أجابه الطّاهر، دون أن ينظر إليه:

– "أدفن صفحة لا أريد لها أن تُنسى."

– "هل مات أحد؟ "

– "مات الكثير... لكننا لا ندفنهم مرَّة واحدة، بل على دفعات: في الصَّمت ، وفي التزكية، وفي توقيعات الشكر، وفي قصائد المديح التي نُهديها لقاتلنا."

في تلك اللّيلة، حلم"الطّاهر" بشـجرة زيتون عتيقة، تخرج من جذعها أوراقٌ مكتوبة بأسماء الموتى.

وفي كل ورقة، كانت عبارة:

– "مات وهو جائع... وكان يمكن ألا يموت."

استيقظ، فوجد نفسه يبكي دون دموع، وتحت وسادته ورقة طيّنة كتب فيها:

– "ليس كل ميتٍ شـهيد... البعض كان مشـروع شـهيد، لكن الجوع كان أسرع من الرصاصة."

وفي صباح اليوم التالي، كتب على جدار الكوخ الأخير في الحي:

– "هذه البلاد لم تُهزم بالجوع... بل بتلك اللحظة التي صـدّقنا فيها أن الجوع قدر، لا جريمة."

فمن لم يمت في المجاعة... واصل الحياة وفي فمه سؤال لا يذوب:

– "هل نعيش لكي نأكل... أم نأكل كي لا نعيش بالطريقة التي يُراد لنا أن نعيش بها؟ "

ظل الجوع في مطبخ ميت

في زاوية المطبخ، حيث الحصـى يغطي الأرض ويخفي الثقوب، كانت فاطمة تُقلب **طاجن الرماد**، لا طعام فيه، فقط حفنة من القمح المحروق وملعقة

من دقيق العدس اليابس، وحين يذوب في الماء، يصير لونه **رماديًا كالحبر القديم**."الطّاهر" جالسٌ على حجرٍ صغير، **يمصّ إصبعه** كما لو أنه يشرب الحليب من ذكرى قديمة.

"يمّا، هل الطين يُشبع؟ "

"الطين لا يُشبع... لكنه يجعل الجوع أبطأ"

الرائحة المتصاعدة من الطاجن ليست لحمًا ولا خبزًا، بل **رائحة أملٍ يحترق دون لهب**. وعلى الجدار، ظلّ صورة مصلوبة لرجلٍ كان يُدعى "الخال سليمان"، اقتاده الجيش الفرنسي قبل عامين، ولم يعد، لكن ظله باقٍ.

في المطبخ أيضًا، فأر كبير يمرّ دون أن يُقتل، فقد تعوّدت الأسرة على وجوده. الجوع جعل حتى الحيوانات ضيوفًا. قالت الجدة "عزيزة":

"لا تقتلوا الفأر... إنه يتفقد ما تبقّى منّا"

بئر الجدّة عزيزة – الذاكرة السوداء

في خلف البيت، بئر قديمة مغطاة بخشبة مثقوبة. الجدة "عزيزة" كانت تخرج عند المغيب، تجلس قربه، وتغني:

"يا بئر، خبّرني: من مات اليوم في صمتٍ؟ من دفنوه دون آذانٍ؟ "

صوتها مجروح، كان في حنجرتها حجرًا. كانت تغني لضحايا لم يُدفنوا، لأجساد مزّقتها ألغام المستعمر، أو للنساء اللواتي اختُطفن إلى ثكنة "عين كحلة".

الطّاهر كان يراقبها، وعيناه تتسعان شيئًا فشيئًا. قالت له:

"إذا لم تسمع البئر... لن تسمع قلبك"

وفي ليلة شتوية، اقترب منها وهمس:

"البئر صامت يا جدّة"

فأجابت ببطء:

"لأنّ من فيه لا يريدك أن تعرف كيف مات"

أمراض بلا دواء – صوت التنفّس الأخير

في الكوخ المجاور، مات **عبد النور**، ابن الجيران، بعد أن بصق دمه ثلاث ليالٍ. كان السل قد نهش رئتيه. أخته الصغرى جاءت تبكي:

"كان ينفخ مثل الناي... ثم صمت"

الجثة دُفنت عند الفجر، خلف النخلة الميتة، ولم يُعلن عن موته. **الجنود الفرنسيون لا يحبّون الجنازات.**

فاطمة أغلقت النوافذ. قالت:

"الحزن ممنوع... حتى الدمع قد يُسجّلونه علينا خيانة"

الطّاهر لم يفهم المرض، لكنه سمع الصفير في الحجرة المجاورة، **صفير الموت وهو يتسلل من الصدر كريحٍ مكسورة.**

وفي اللّيل، حلم بأنه يختنق، وبأن رئته تمتلئ بـ **رمل ساخن.**

تفتيش منتصف اللّيل – حين يُهدم النوم

كانت الساعة تقترب من الثانية فجرًا حين سُمع طرقٌ عنيف على الباب. الجنود الفرنسيون دخلوا البيت دون إذن، حذاؤهم **يخدش الأرض مثل الكلاب الضالة.** أمسكوا الأب من لحيته، سحبوه أرضًا، وكسروا الطاجن الفارغ.

الجندي الأطول ركّل الغطاء عن الطفل"الطّاهر" وقال:

"أين تُخفون الذخيرة؟ حتى الرضيع يملك جيبًا!"

بكى الطّاهر، لكن أحد الجنود سدّ فمه بكفه القذر. الجدة عزيزة، رغم عمرها، رفعت عصا الحطب، لكنها ضُربت على يدها.

ظلت فاطمة صامتة، ودمها يسيل من الركبة بعدما دفعوها. بعد ربع ساعة من العبث، خرجوا. وقبل أن يغادروا، كتب أحدهم على الجدار بالفحم:

"أرض بلا قانون، لا تستحق الحياة"

كوابيس على وسادة من غبار

في تلك اللّيلة، لم ينم الطّاهر. ظلّ يسمع الباب يُفتح كل دقيقة، ويسمع **الأقداح النحاسية تتكلم وحدها**. حلم بأرضٍ تحترق، وأمّ بدون وجه، ومرآة تعكس **صورة طفل يرتدي معطفًا فرنسيًا مدمّى.**

استيقظ وهو يصرخ:

"أنا مش فرنسي! أنا ما قتلتش!"

أمه احتضنته، لكن احتضانها كان كمن يطوّق **ريحًا هاربة.**

قالت له: "ليس المهم أن تكون جزائريًا... المهم أن تبقى حيًّا"

جذور لا ترى الشمس

جلس الجدّ "الحاج بنسعيد" مع حفيده عند الفجر. السماء بلون الحبر، والجبال بعيدة **كأطراف حلم مكسور.**

قال الجد:

"كل ما تعلمته يا بني، هو جذور... لكن جذورك تنمو في الظلام. ستخرج يومًا، لا تنسَ أن تحمل في يدك قدحًا... وفي الأخرى رصاصة"

ثم وضع في يد"الطّاهر" حجرًا صغيرًا، وقال:

"هذا اسمه الذاكرة... لا تُفرّط فيه"

أول سلاح

"حين نطقت الأرض بالبندقية"

كان الغروب أكثر حُمرة من المعتاد، كان الشمس سقطت في دمٍ لا نعرف مصدره. عاد"الطّاهر" من الحقول، وفي يده كيس من الحصى، لا ليبني شيئًا، بل ليقذف به صمت الأيام القادمة.

لكن حين وصل المسجد القديم، سمع صوتًا مختلفًا: صوت خشخشة حجر على حجر، كان أحدهم **يفتح قبرًا، أو يخرج من واحد.**

اقترب ببطء، فتذكّر ما كان يسمعه من أبيه عن **البلاطة السابعة** — تلك التي وُضعت مائلة قليلًا في ركن الحائط الشرقي للمسجد.

قالوا إن تحتها **حكاية مخبّأة، لا تُروى إلا لمن يكتمها.**

في تلك اللحظة، رأى أباه يوسف يرفع البلاطة بيدين متردّدتين، كمن يوقظ نبيًّا في كهف. تحت البلاطة... كان السرّ نائمًا بهدوء منذ زمن:

- **سبع بنادق** ملفوفة بجلد ماعز مشقّق.
- **قارورة من زيت الحيّة**، تُستعمل للحفاظ على الحديد من الصدأ، وتُقال عنها في القرية: *"سحر الصبر المسلّح."*
- **منجل معقوف**، يبدو للوهلة الأولى أداة حصاد، لكنه مخصّص لتنظيف السبطانات.
- وكتاب صغير... صفحاته باهتة، وغلافه مكتوب بدم غامق:

"**طريقة تفكيك السلاح – تعليمات غير رسمية**"

قال الأب وهو يناوله أول بندقية:

– "خذ. لا تطلقها بعد. أول طلقة يُطلقها القلب... لا الزناد."

حدّق"الطّاهر" في السلاح كما يُحدّق الطفل في مرآة غريبة: لم يرَ آلة قتل، بل **لغة جديدة تُكتب بالفحم الصلب.**

أراد أن يسأل:

– "لمن هذه البنادق؟ "

لكنه سمع في رأسه الجواب، قبل أن ينطقه أبوه:

"هذه ليست لمن سيطلق النار فقط... بل لمن لم يعد له طريقة أخرى ليحفظ ذاكرته."

وفي آخر الصفحة من الكتاب الصغير، قرأ بخطّ يشبه الخوف حين يتعلّم أن يكون شجاعًا:

"**إذا لم يكن لك قلم تكتبه... فافتح فم الحديد، ودع رصاصك يُكمل ما لم تَقُلْه.**"

من تلك اللحظة، فهم الطّاهر:

أن السلاح ليس رجولة، ولا هوسًا، ولا متعة... بل **ذاكرة مُثبّتة على شكل غضبٍ مستقيم.**

"الطلقة التي لم تَرجع"

كان"الطّاهر" وحده في فناء خلفي جاف، تحيط به جدران الطين كأنَّها قبور تنتظر من يسقط فيها واقفًا. أمسك البندقية بين يديه كما يُمسك الطفل بشيء لا يعرف هل هو ألعوبة أم عهد.

لامس الزناد بإصبعه المرتجفة، وعيناه مشدودتان إلى الفراغ.

لم يكن يريد أن يُطلق.

لكن البندقية، كما يقول جدّه، "لا تُحب الصّمت الطويل".

حدث ذلك سريعًا...

صوت. . اهتزاز. . صفير خافت كان الزمن نفسه انشطر.

الرصاصة انطلقت.

لم تصِب شجرة، ولا هدفًا من خشب.

بل أصـــابت **بغلة الجار — تلك العجوز ذات العرج، التي كانت تســـحب الماء من البئر دون أن تشتكي.**

ارتفعت صرخة الحيوان، كأنَّها صرخة بشرٍ نُزعت منه الكلمات.

الدم سال كخيط أحمر مستقيم، شقّ الأرض اليابسة، وامتدّ حتى لمس قدم الطّاهر. تجمّد في مكانه.

لم يعرف هل يبكي، أم يصرخ، أم يبتلع الطلقة التي خرجت منه **ولم تعُد**.

جاء الأب. لم يصرخ.

نظر إلى البغلة، ثم إلى ولده، ثم إلى السلاح.

قال له:

– "إذًا... السلاح تكلّم. والآن... حان وقت التأديب."

أخذه من يده، وساقه كمن يسوق ظلّه، إلى الزيتونة الكبرى خلف المسجد. ربطه بحبلٍ عتيق إلى جذعها، ثم رفع عصـا الزيتون — تلك التي تُضـرب ولا تُكسر — وبدأ الجلد. **عشرة ضربات**. .

كل ضربة كانت درسًا: الأولى للاندفاع. الثانية للغفلة. الثالثة للغطرسة. والرابعة للدم. والخامسة... لم تكن للخطأ، بل **لمن نسـي أن السـلاح لا يُمسـك قبل أن يُفهم.** بعد الضرب، لم ينهه بالكلام.

بل سلّمه منجلًا، وقال له:

– "إما أن تدفن البغلة، أو تخيط جرحها بإبرة وخيط من شعر الفرس."

ردّ الطّاهر:

– "والرصاصة؟ " قال الأب:

– "لن تعود. الرصاصة لا تعود... لكن الإنسان يعود، إن عرف كيف يحفر في نفسه حفرة، ويزرع فيها ذنبه."

في المساء، كتب"الطّاهر" على قطعة جلد غزال:

"**أول رصاصة أطلقتها، لم تصب عدوي... لكنها قتلت شيئًا بريئًا في داخلي.**" ثم أضاف:

"**الذي لا يعرف لمن يُطلق النار... سيُطلقها على كل شيء، ثم يقول: لم أقصد.**"

"طقوس لا تُعطى... تُكتسب بالنار"

منذ حادثة البغلة، أصبح للطّاهر **جدول عقابيّ يومي**، لا يختلف عليه أحد في البيت. ليس تأديبًا لحادثة وحيدة، بل **مقدّمة لسلوك جديد: كيف يحمل الإنسان السلاح دون أن يتحول إلى حيوان؟**

قال له أبوه: – "من أطلق رصاصةً قبل أن يفهمها... فعليه أن يُعيد صياغة يده كل يوم." وهكذا، بدأت الطقوس.

كل مساء، قبل الغروب، كان"الطّاهر" يذهب إلى "غرفة الحطب"، تلك الزاوية المنسية خلف البيت، ويبدأ التمارين الثلاثة، التي سُمّيت بصمتٍ في البيت: "**طقوس التطهير.**"

1. تنظيف السلاح

كان عليه أن يُخرج البندقية التي أصابت البغلة، ويفكّكها قطعةً قطعة:

- يمسح الفوّهة بخرقة زيت قديم.
- يزيل الرمل العالق في الزناد.
- يضع قطرة من زيت الحيّة على السبطانة.

كل ذلك دون أن يتكلّم.

وإن نسي قطعة واحدة، يُمنع من العشاء.

2. كتابة الجملة على جلد الغزال

في كل ليلة، كان يُؤمر أن يكتب الجملة نفسـها بخطّ يده على قطعة من جلد الغزال:

"**الرصاصة لا تغفر لمن لم يسألها إلى أين.**"

كان يكتبها أحيانًا وهو ناعس، أحيانًا وهو جائع، أحيانًا ويداه ترتجفان من البرد، لكن لم يُعفَ منها ليلة واحدة.

قال له الأب ذات مرة:

. "إن لم تعرف كيف تُكرّر الجملة... فلن تعرف يومًا كيف تُكرّر الصواب."

3. حفظ صفحة من كتاب التفكيك

كان الكتاب الصغير، المغلّف بجلد داكن ومرسوم عليه بالأحمر:

"**تعليمات غير رسمية لفهم الحديد.**"

يقع على صدره كل ليلة.

عليه أن يحفظ صفحة، وأن يُعيدها بصوت منخفض في الصباح.

صفحات الكتاب لم تكن فقط تعليمات:

- بعضها يحمل رسومًا بدائية.
- بعضها مكتوب بحبرٍ متقطّع.
- بعضـها بدا كان من كتبه **كان يُمسـك القلم وشـفرة الخوف في نفس اليد.** في إحدى الصفحات، قرأ:

"**السلاح لا يُستخدم من أجل القتل... بل من أجل أن لا تُقتَل.**"

وفي آخر كل ليلة، كان ينام على فراش من القش، دون غطاء.

حتى في الليالي الباردة، لا يُعطى بطانية.

قال له الجدّ:

– "البطانية تأتي بعد أن تتعلّم كيف تُدفّئك مبادئك."

وفي منتصف اللّيل، ينهض أحيانًا خائفًا، كان البغلة تصرخ من جديد.

لكنّه لا يبكي.

بل يُقنع نفسه أن كل صرخة يسمعها... هي **رصاصة لم يتعلّم بعد كيف يُطلقها في الاتجاه الصحيح.**

وكتب في دفتره:

"**أن تحمل السلاح قبل أن تنام، أصعب من أن تحلم به.**"

"السلاح ككائن حيّ له أنفاس وأسرار"

في اللّيلة السابعة من طقوس العقاب، حدث شيء لم يكن متوقّعًا: بعد أن نظّف"الطّاهر" البندقية وأعاد تركيبها بحذر، سمع في داخله **صوتًا لا يشبه صوتًا بشريًّا، ولا يشبه وسوسة، بل أقرب إلى صدى.**

همس في أذنه:

"الذي لا يصادقني... سأقتله قبل أن يُطلق بي."

تجمّد. . لم يكن خائفًا... لكن شيئًا غريبًا تحرّك في عموده الفقري. كان السلاح كلّم روحه.

أخذ البندقية، ووضعها على ركبتيه. لم يعد يراها كما رآها في اليوم الأول. . لم تعد أداة. . بل **رفيقًا شرسًا... بحاجة إلى أن يُفهم، لا أن يُستعمل.**

بدأ يتكلّم معها كل ليلة.

– "أنتِ الآن تعرفين اسمي؟ "

– "هل تذكرين من قتلتِه بالخطأ؟ "

– "هل ستغفرين لي إن نسيتُ زيتك؟ "

– "هل ستعاقبينني إن كبوتُ؟ "

ثم فجأة، كتب في دفتره:

"**السلاح الحقيقي ليس لمن يطلق... بل لمن يُنصت لصاحبه.**"

في أحد الأيام، جاءه الأب وقال له:

– "هل بدأتَ تحبّها؟ "

فردّ الطّاهر:

– "أخاف أن أُحبّها أكثر من اللازم."

فقال الأب، وهو يُلقي نظرة على خشبة البندقية:

– "لا تخف. الحبّ ليس المشكلة... المشكلة أن تُحبها قبل أن تُحب من تدافع عنهم بها."

تأمل"الطّاهر" البندقية طويلاً.

سألها بصمت:

"هل تحمينني... أم تسحبينني نحو موت لا أعرفه؟ "

ثم قرّب جبهته من الخشب، وقال همسًا:

– "لن أستخدمك إلا إذا كنتِ آخر جملة ممكنة."

تلك اللّيلة، نام وهو يحتضنها كما كان يحتضن كتاب التفكيك.

وفي الحلم، رأى البندقية **تتحوّل إلى نخلة سوداء، تثمر رصاصًا، وتبكي كلما قُتِل طفل دون أن يطلقها.**

استيقظ، فكتب:

"**كل بندقية تُقتل بها امرأة بريئة، تصرخ في اللّيل بصوت لا يسمعه سوى من نظّفها.**"

"الخطوة الأولى خارج الدار"

في صباحٍ غائم، ناوله الأب قطعة قماش صغيرة، فيها خرطوشتان، وقال له:

– "اليوم... لن تنظّف السلاح فقط، بل ستحمله خارج الجدران."

حدّق فيه الطّاهر، كمن يُفكّر:

"هل أنا مستعد لأن أحمل شيئًا يمكن أن يُصدر موتًا؟ "

لكن عينيه لم تسألا. . بل يداه، حين أمسكت بالبندقية بحذرٍ يشبه لمس الأمّ لجرح رضيعها.

خرج من البيت بصمت، مرّ عبر الزقاق، والحقل، ثم وصل إلى **المنطقة المهجورة خلف البئر** — حيث يُقال إن الفرنسيين دفنوا جثثًا ذات ليلة، ثم حرّسوا المكان بشائعة الجن.

كان في جيبه اليمنى كيس صغير فيه ملح، وفي جيبه اليسرى قطعة من القرآن من سورة "الأنفال".

قال له الجدّ وهو يودّعه:

– "لا تُرعب الطير... فقط اقترب منه كأنّك تصادق ظلّه." مشى"الطّاهر" بين الحشائش اليابسة، خطواته بطيئة، عيناه تلتقطان التفاصيل لا الأهداف:

— قطعة قماش بين الصخور

— هيكل عظم لطير

— صدأ على لوح من معدن قُذف بعيدًا

ثم... سمع الصوت.

نقرة. . ثم خشخشة. . ثم سعال.

كان أحد الجنود الفرنسيين يتمشى قرب الصخور، سيجارة مشتعلة في يده، ووجهه بلا خوذة.

ارتجف الطّاهر.

لم يكن يبعد أكثر من خمسين مترًا.

كان بإمكانه أن يُطلق... لكن إصبعه تجمّدت.

لم يكن خائفًا من الموت.

بل من **أن يُخطئ مرَّة أخرى. أن تطلق البندقية غضـــبًا، لا يقينًا. أن تتحوّل الرصاصة إلى خطأ يُمحى بعد فوات الأوان.**

أغلق عينيه.

تخيّل البغلة. . تخيّل جسدها المسجّى. . تخيّل الأرض التي ما زالت تحته تنزف من ذاكرته.

فتح عينيه.

وضع إصبعه على الزناد. لكن لم يُطلق. بل همس:

– "ليس الآن... ليس هكذا."انسحب بصمت.

عاد إلى البيت في المســاء، يضــع الســلاح كما اســتلمه، لكن **أثقل بمئة عام.**

قال لأبيه: – "رأيت الهدف. ولم أطلق."

أجابه الأب:

– "إذًا... أنت الآن تملك الســلاح. لأنك لم تقتله في أول فرصــة، بل في أول لحظة اختبار."

في اللّيل، كتب"الطّاهر" في دفتره:

"**الخوف لا يعني الجُبن... بل يعني أن الرصاصة تنتظر لحظةً تكون فيها شهادة لا خطأ.**" ثم أضاف:

"**كنت أملك النار... واخترت أن أُشعل بها نفسي لا غيري.**"

"ليس لأني أحب القتال... بل لأني أرفض الصَّمت "

في المســـــاء التالي، جلس"الطّاهر" أمام النار، والبندقية على حجره، لا كأداة، بل **ككتاب مفتوحٍ لا تُقرأ صفحاته بالكلمات، بل بالأفعال.**

قال لأبيه، بعد صمت طويل:

– "أنا لا أحمل هذا لأُطلق. بل لأردّ."

– "تردّ على من؟ "

– "على من يظنّ أننا لا نملك صوتًا... إلا حين نصرخ من الجوع."

ذلك اللّيل، حمله الجدّ إلى مجلس صغير خلف المسجد، اجتمع فيه خمسة رجال، وجوههم غائرة، كأنَّهم يحملون في عيونهم مواســـم المجاعة، والجهاد، والخيانة.

كانوا يبحثون عن سلاح.

لا للتجارة، ولا للثأر.

بل لأن **القرية بدأت تُطوّق بالصَّمت المريب للجنود الفرنسيين، وصوت العربات الثقيلة في الجبل صار أوضح من الأذان.**

قال أحدهم:

– "نحتاج إلى اثنين من الصـــبية... يحمِلون الرســـائل بين الحقول والمخازن."– "ويعرفون السلاح."– "ويعرفون متى لا يستخدمونه."

نظر الجدّ إلى الطّاهر.

فقال الرجل الآخر:

– "صغير."– "لكن صمته طويل."– "وهذه علامة من وُلد ليفهم أكثر مما يقول."

بعد الاجتماع، عاد"الطّاهر" إلى البيت.

وهو يسير، خطر في ذهنه مشهد الرصاصة التي لم يُطلقها.

لكن بدل الندم، أحسّ براحةٍ غريبة. كان البندقية في يده لم تعد تطلب منه شيئًا... بل **تحترمه لأنه لم يستعملها بلا وعي.**

جلس على الأرض، فتح دفتره، وكتب:

"**أنا لا أطلب النار لأنني أحب الحريق... بل لأن بيتي محاصر.**"

"**لو وُلدت في زمن لا يُمنع فيه الحرف... لما حملتُ الحديد.**"

وفي السطر الأخير، كتب جملة بيد مرتجفة كأنَّها ترتّل قسمًا داخليًّا:

"**سأُطلق فقط حين يكون الصَّمت خيانة، والرعشةُ نسيانًا لوجه أمي.**"

"الرسالة الأولى لا تُقرأ... بل تُحمَل"

في ظهيرة يوم غائم، نادى عليه الجدّ بصوت خافت:

– "يا طاهر... اقترب."

ناوله قطعة قماش ملفوفة بإحكام، شكلها كأنَّها كسرة خبز.

لكنها لم تكن خبزًا.

داخلها ورقة صغيرة، ملفوفة جيدًا حول قطعة من الفحم المطحون، ومربوطة بخيط رفيع من شعر الفرس.

– "إيّاك أن تفتحها."– "إلى أين؟ "– "إلى اسّي الحسين، في بيت الطاحونة القديمة... ستدخل من الخلف، تدق ثلاث دقات وتنتظر."

ثم أضاف:

– "وإن أوقفك جندي؟ "

رد الطّاهر، دون تردد:

– "أقول إنها وصية موتى."– "وإن فتّشوها؟ "– "أبلعها."

ابتسم الجد، وقال:

– "الذي يحمل الرسالة لا يقرأها... بل يتحوّل هو نفسه إلى سطرٍ لا يجب أن يُخطئ."

سار "الطّاهر" في طريقٍ يشبه فكره: **ضيق، مُلتفّ، مملوء بالحجارة، والصَّمت، والخوف المحسوب.**

مرّ بثلاث نساء يحملن الحطب، رمقنه بنظرات خاطفة. واحد منهم قالت بصوت منخفض: – "ابن يوسف؟ "ردّت الأخرى:

– "منذ أصبح يحمل شيئًا، صارت قامته أطول من عمره."

وصـل إلى الطاحونة. كانت مغطاة بنباتات متسـلّقة، بابها الخشـبي مائل كأنَّه لا يريد أن يُفتَح.

دقّ: واحدة.. اثنتان.. ثلاث..

لم يُفتح الباب.. لكن يدًا خشـنة سـحبت الرسـالة من تحت فتحة الأرضـية، دون أن يظهر وجهٌ أو ظلّ.. صمت..

انتظر دقيقة. ثم مشى..

في طريق العودة، كان أكثر وعيًا بخطواته. كأنَّه يعرف أن الأرض تتذكّر من مشى عليها... لا بمن رفع رأسه، بل **بمن دسّ الخوف في قلبه ومشى رغم ذلك.**

في البيت، لم يسأله الجد شيئًا. لكن فاطمة ناولته قطعة تمر.. قالت:

– "هذه لك... لا لأنك أنهيت المهمة، بل لأنك لم تضعف."

فأخذها، وقسّمها نصفين، وأعطاها لأخته الصغيرة.

قال:

– "إذا كبرنا وحدنا... سنموت وحدنا."

في تلك اللّيلة، كتب على حافة النافذة، بأظافره على الخشب:

"**أنا لا أحمل الرسـائل لأنني أعرف... بل لأن هناك من يعرف، ويحتاج أن أكون بينه وبين النار.**"

"أن ترى دون أن تُرى... تلك هي أولى درجات الحرب"

في اللّيلة التالية، ناداه أبوه. جلسـا قرب الموقد، حيث النار تذوب الخشـب كما يذوب الزمن في نظر العارف.

قال له يوسف:

– "اليوم، لا تحمل شيئًا... لا بندقية، ولا رسالة."

نظر إليه"الطّاهر" متسائلًا.

فقال: – "اليوم، تحمل فقط عينيك."

ثم ناوله قطعة فحم رفيعة وورقة مرقّطة بنقاط سوداء.

– "هذا موقعهم الجديد. ثلاثة جنود يتمركزون قرب النبع الكبير... نريدك أن تراهم ولا يروك. تكتب كم مرَّة يتحرّكون، متى يأكلون، وأي واحد منهم يخرج أولًا."

في الفجر، خرج الطّاهر.

السماء رمادية، والريح تحمل أنفاسًا مملوءة برائحة الزيت المحروق والماء العفن ... رائحة فرنسا حين تُخيّم دون دعوة.

وصل إلى صخرة تطل على الوادي. جلس كأنَّه طفل يبحث عن عصفور ضائع، لكن **عيناه كانتا أحدّ من الحديد.**

رأى الجنود الثلاثة:

- أحدهم أصلع، يدخّن بكثافة.
- الثاني يتكلّم كثيرًا، يركل الحصى دون سبب.
- الثالث، هادئ... يراقب كما يراقب"الطّاهر" نفسه.

كتب الطّاهر:

"الجندي الأول: يتأخر في المراقبة، مشغول بالدخان. الجندي الثاني: لا يثبت في مكان، يمشي أكثر مما ينظر. الجندي الثالث: خطر... لأنه يشبهني. صامت، حذر، لا يتحرّك كثيرًا."

بعد ثلاث ساعات، انسحب بهدوء.

في طريق العودة، لم يشعر بالخوف، بل بشيء أشبه بالشفقة: هؤلاء الجنود، رغم سلاحهم، لا يملكون شيئًا.

قال في نفسه:

- "لديهم رصاص... لكن لا يعرفون على من يُطلقونه."

ثم خطّ على ظهر الورقة التي كتب عليها:

"**أن ترى العدو دون أن يراك... لا يعني أنك أقوى منه، بل إنك تختار متى تُصبح ظلّه.**"

عند عودته، ناوله والده قطعة خبز محروق.

قال له:

- "كلّ من يرى جيدًا... يجب أن يأكل قليلاً."

ردّ الطّاهر:

- "لأن من يرى أكثر، يشبع أقل."

وفي اللّيل، كتب في دفاتره:

"**المراقبة ليست نظرًا... بل فريضة صامتة تُمارَس كي لا يُصلَّى على القرية مبكرًا.**"

"عندما يتكلم الرصاص قبل أن نُفكّر"

كان المساء حادًّا، الريح تصفّر بين أشجار الزيتون اليابسة، كأنَّها تحذّر من شيء لا يعرف الطريق... لكنه قادم.

كان"الطّاهر" عائدًا من نقطة المراقبة، يحمل في جيبه ورقةً مطوية فيها تفاصيل اليوم:

- اثنان من الجنود غادرا الموقع في سيارة.
- الثالث بقي وحده... كان يجرّ خريطة ويدندن بصوت خفيض.

لكن في الطريق، وقبل أن يبلغ الحيّ، سمع **أول رصاصة حقيقية.**

لم تكن مثل صوتها في التمارين.

كانت أقرب إلى **صفعة على وجه الأرض.**

ثوانٍ فقط... تبعتها ثلاث رصاصات أخرى.

ركض الطّاهر، دون أن يشعر برجليه.

رأى غبارًا يتصاعد من خلف الخربة المجاورة، وسمع صيحات مختنقة، ثم **صوت خشن يصرخ بالفرنسية:**

"**Fuyez, il y a des Fellaga !"(اهربوا، هناك مقاومون!)**

اقترب بحذر، وانبطح خلف جدار طيني متهالك.

من بين الشقوق، رأى المشهد:

- جنديّان يركضان نحو العربة.
- جسد ثالث ساقط عند زاوية الحائط.
- ورجل مقنّع يقف على الركبة، يُفرغ آخر رصاصة بهدوء قاتل.

لم يتحرك.

لم ينبس بكلمة.

لكن قلبه **يخفق، كأنّ سرب حمام فيه يريد أن يطير ولا يُسمح له.**

بعد دقائق، اختفى المجاهد، واختفت العربة الفرنســـية في الغبار، و**بقيت الرائحة: بارود، دم، وخوف.**

عاد إلى البيت دون أن يتحدث.

لكن حين دخل، قال له الجد من دون أن ينظر إليه:

- "سمعتَ صوتها؟ "

ردّ الطّاهر:

- "نعم... سمعتُ الرصاصة التي لا تُقال."

فأجابه:

- "تلك هي بداية الحقيقة... حين تتكلم النار قبل أن نتخذ قرارًا."

في اللّيل، جلس قرب المصباح، وكتب:

"العدو لم يكن بعيدًا... كان في مرمى العين، يتسمع الأنفاس. والمقاومة لم تكن أسطورة... كانت بين ظلّي وظلّ الجدار."

"القتال الحقيقي لا يبدأ حين نحمل السلاح... بل حين نرى أول جثة، ولا ننهار."

"القرار لا يُؤخذ بالسلاح... بل باليد التي تمتد إليه"

في مساءٍ بلا قمر، أُرسِل "الطّاهر" إلى بيت "عمّي علي"، ذاك الفلّاح الصامت الذي يزرع الصَّمت كما يزرع الشعير — لا يضحك، لا يُطيل الكلام، لكنه يُقال عنه: *"من يعرفه... يعرف الطريق إلى الجبل."*

دخل البيت.

كانوا ثلاثة رجال يلبسون عباءات داكنة[1]، وجوههم مثل وجوه من ماتوا واقفين ثم عادوا للحياة كي يُتمّوا مهمة.

أُطفئت المصابيح، وتكلم أحدهم:

– "أنت ابن يوسف؟ "

– "نعم.

– "وحفيد "الحاج بنسعيد"؟

– "نعم.

– "هل سمعت ما حدث البارحة؟

– "كنت قريبًا."

قال الرجل الآخر، وكان صوته ألين من المتوقع:

(1) تسمى باللهجة الجزائرية: الجلاَّبة، وهي مصنوعة في الأكثر من صوف الغنم أو وبر الإبل، تقي قرّ الشتاء وحرّ الصيف، وهي من لباس الرجال؛ العامة والخاصة عل السواء.

– "نحن لا نُجبر أحدًا على شـيء. السـلاح، حين يُعطى لمن لم يطلبه، يُصبح خطرًا على الجميع."

وضع على الطاولة **بندقية قصيرة، من نوع:** *لي إنفيلد*[1]، وخريطة مطوية. ثم قال:

– "إن قررتَ أن تنضـم... فغدًا سـنمرّ بك قبل الفجر. وإن لم تخرج من بيتك، فلن يُعاتبك أحد."

صمت الطّاهر.

لم يُجب. لكن في عينيه، كان شـيء يتحرك... ليس الحماسـة، بل **شـيء أعمق، يشبه استدعاء الذاكرة.**

رأى:

- وجه البغلة التي نزفت بسببه.
- جوع أمه وهي تبتسم لتُخفي قسوة اللقمة.
- حدة بنت عاليّ وهي تمسح الآية من التراب.
- الجار وهو يوقّع على ورقة الذلّ ليأخذ كيس دقيق.

نظر إلى السلاح، ولم يلمسه.

ثم قال:

– "سـآتي... لا لأنني أريد أن أُطْلق، بل لأنني لا أريد أن أُصَـفِّق بينما تُطلق النارُ على الناس."

---

(1) لي إنفيلد Lee Enfield: هي بندقية متكررة تعمل بمسـامير وتغذيها مخزن، وكانت بمثابة السلاح الناري الرئيسي للقوات العسكرية للإمبراطورية البريطانية والكومنولث خلال النصف الأول من القرن العشـرين، وكانت بندقية الخدمة القياسـية للقوات المسـلحة البريطانية منذ اعتمادها رسميًا في عام 1895 حتى عام 1957.

هزّ أحد الرِّجال رأسه، وقال:

- "أحسنت... من يبدأ بالحقيقة، لا يضيع في الطريق."

في طريق العودة، مشى"الطّاهر" تحت سماء من دون نجوم. وكان يشعر أن خطواته، وإن كانت في التراب، **فهي تحفر شيئًا في الهواء.**

وفي اللّيل، كتب على ورقة من كيس الدقيق الفرنسي نفسه:

"**الذي يُعرض عليه السـلاح، ويُعطى حرية الرفض...هو الوحيد الذي يستحق حمله.**"

"ظلٌّ على حافة النار"

في فجر اليوم التالي، طرق ثلاثة رجال نافذة الطّاهر. لم يتكلّموا. فقط أشاروا له بعيونهم، كأنَّهم يقولون:

"الساعة بدأت... لا تتأخر على التاريخ."

ركب معهم بغلًا أعور، وساروا في صمتٍ بين الحقول المبلّلة بندى ثقيل، يشبه بكاء اللّيل على من سيمرّون به ولا يعودون.

بعد ساعة من السير، وصلوا إلى **موقعٍ يُطل على نقطة تفتيش فرنسية صغيرة**، فيها ثلاثة جنود، وخيمة من قماش، وعربة صغيرة متوقفة في الخلف.

أُجلس"الطّاهر" تحت شجرة سدر يابسة، وناوله "عمّي علي" منظارًا صدئًا، وقال:

- "من هنا، راقب فقط. الذي لا يرى جيدًا... لا يُطلق جيدًا."

رأى كل شيء:

- أحد الرِّجال يزحف نحو العربة.
- الثاني يزرع قطعة صغيرة في التراب.
- الثالث يتموضع بين الصخور، يركّب بندقيته كما يُركّب رجل صلاةً قبل الخشوع.

دقّ قلب الطّاهر.

لم يكن خائفًا.

لكن كل نبضة في صدره كانت تقول:

"بعد اليوم... لا رجعة إلى ما كنت عليه."

ثم، في لحظة صمتٍ تامة، ارتفع شيء من الأرض.

انفجار صغير.

صرخة قصيرة. وصوت رصاصتين. وغبار.

ثم هدوء.

رجع الرِّجال بنفس الصَّمت . واقترب "عمّي علي" من الطّاهر، ووضع يده على كتفه، وقال:

– "الحرب الحقيقية... ليست في هذه الطلقات، بل في ما ستفعله بها بعد أن تراها."

في العودة، لم يسأل"الطّاهر" شيئًا.

لكن حين وصل إلى البيت، دخل غرفته، وأخرج دفتره.

كتب فيه:

"**لم أرَ وجوههم... لكني رأيت أيدينا وهي تصنع المعنى.**"

"**المقاومة ليست نارًا تحرق... بل ظلٌّ يسبق الضوء حتى لا يُصاب بالعري.**"

"**اليوم... بدأ اسمي يقترب من الحقيقة.**"

"الصدق في الكذب... حين يكون الصَّمت خيانة"

في صباح اليوم التالي للعملية، دخل الجنود الفرنسيون القرية كمن يدخل عيادة لتشخيص الأنفاس. عيونهم باردة. أيديهم على الزناد. وخلفهم "حَرْكي[1] –مترجم جزائري — صوته أنظف من ملامحه، يبتسم وكأنّه **يعتذر عن كونه يعرف العربية.**

تقدّم الضابط نحو منزل الطّاهر. دقّ الباب بثقة من لا يحتاج إذنًا.

فتحت فاطمة.

– "ولدك؟ "

أشارت إليه.

وقف"الطّاهر" في باب الغرفة. لم يرتبك. بل اكتشف أن الصَّمت يُربك العدو أكثر من الكلمات المرتجفة.

قال المترجم، وقد نفخ صدره كأنَّه يقول الحقيقة لأول مرة:

– "رأينا آثار أقدام قرب موقع التفجير. يبدو أن أحد الأولاد كان يراقب. هل تعرف شيئًا، يا طاهر؟ "

نظر"الطّاهر" إلى الأرض، ثم رفع عينيه ببطء.

– "كنت أبحث عن معزتنا الضائعة."– "وأين وجدتَها؟ "– "عند الصخور. لم أكن أعلم أن الفرنسيين يخافون من معزة."

ضحك الجندي بجانبه. لكن الضابط لم يضحك.

---

(1) هو مصطلح جزائري، كان يطلق في زمن الاستعمار على الجزائريين الذين كانوا يوالون فرنسا، طمعا في الامتيازات التي تمنحها لهم، وقد يحاربون لأجلها ويدلونها على المجاهدين والمقاومين الرافضين لها. ويطلق عليهم أيضا: الخونة.

سأل:

- "هل رأيت أحدًا؟ "

ردّ الطّاهر:

- "رأيت ظلّي فقط."

ثم أضاف بعد صمت قصير:

- "لكنه لا يحمل سلاحًا... فقط ظلًا."

تبادل الضابط والمترجم نظرات صلبة، ثم قال:

- "من الأفضل أن تقول الحقيقة، فنحن نعرف كل شيء."فردّ"الطّاهر" بهدوء:

- "كل من يقول (نحن نعرف كل شيء)... لا يعرف شيئًا."

غادروا بعد دقائق.

وفي لحظة خروجهم، دسّ الجدّ في يد"الطّاهر" ورقة صغيرة فيها اسم مشفّر.

قال:

- "من يقدر أن يكذب بهذا الإتقان... يقدر أن ينقذ من لا تُنقذه الرصاصة."

في تلك اللّيلة، كتب"الطّاهر" في دفتره:

"ليس كل كذبة خيانة... أحيانًا، الكذب هو القميص الوحيد المتبقّي للحقائق العارية."

"الذي يختار أن يكذب كي لا يُسلّم صاحبه... صادقٌ أكثر من الذي يصرخ بالحقيقة أمام الجنرال."

"تفكيك الحديد... وتركيب النفس"

في غرفة مغلقة تحت بيت الحاج عمار، اجتمع"الطّاهر" مع أربعة آخرين من أبناء القرية، جميعهم في مثل عمره، أو أكبر بسنة أو اثنتين.

كانت الجدران مدهونة برماد الفحم، الأرض ترابية صلبة، والنافذة الوحيدة تُطلّ على حائط أعمى.

وضع "عمّي علي" خمس بنادق من طراز مختلف على الطاولة، وقال:

– "قبل أن تَطلق... عليك أن تُطفئها وتُشعلها من جديد."

نظر إليه أحدهم وقال:

– "كيف؟ "

ردّ بصوت يشبه التعليم في المقابر:

– "السلاح ليس جزءًا منك حتى تعرفه من الخارج... بل من الداخل. كما لا تُحبّ امرأة من وجهها فقط... بل من تجاعيد صوتها حين تقول اسمك."

أمام كل واحدٍ منهم، بندقية. أمام كل بندقية، ساعة رملية صغيرة. وعند انقضاء الوقت، يجب أن يكون السلاح مفكّكًا، نظيفًا، مركّبًا.

كل خلل... عقوبة. كل قطعة تُنسى... حرمان من النوم.

بدأ الطّاهر.

- أول مرة: 11 دقيقة.
- الثانية: 8 دقائق ونصف.
- الثالثة: 6 دقائق و40 ثانية.

وكان كل مرَّة يُخطئ في نفس النقطة: الزناد لا يعود إلى مكانه، إلا بعد نَفَس طويل.

قال له "عمّي علي" بعد المحاولة الرابعة:

– "أنت لا تُخطئ في يدك... بل في نيتك. ما زال في داخلك شيء يخاف من إطلاق النار."

ردّ الطّاهر:

– "أخاف أن أُطلقها في غير وقتها."

هزّ "عمّي علي" رأسه، وقال:

– "وهذا خوفٌ جميل... لكن الحرب لا تُعطيك رفاهية اختيار الوقت. إما أن تكون جاهزًا كل لحظة... أو تموت بإبرة لم تُخاط كما يجب."

في المحاولة الخامسة، أغمض"الطّاهر" عينيه. لم ينظر إلى السلاح.

بل ترك يديه تتذكّر وحدها.

كل قطعة من البندقية صارت **جزءًا من حكاية:**

- سبطانة = العمود الفقري.
- الزناد = الصَّمت القاتل.
- القفل = بابٌ لا يُفتح إلا لمن يعرف موت الحروف.

فتح. نظّف. ركب.

4 دقائق و12 ثانية.

وقف. تنفّس. وقال دون أن يُطلَب منه:

– "الآن... لو سقط السلاح مني في اشتباك، سأعرف كيف أسترجعه بسرعة دون أن أُطلق رصاصة في الفراغ."

في اللّيل، كتب:

"**أنا لا أُدرّب أصابعي على القتل... بل على ألا ترتجف حين أُجبَر على قول الحقيقة بصوت المعدن.**"

"طفل يبيع البيض... وعيونه تفقس الأسرار"

قال له "عمّي علي" بعد صلاة الفجر:

– "اليوم لن تحمل بندقيتك... بل سلّة بيض."

نظر إليه"الطّاهر" باستغراب.

رد الرجل وهو يضع أمامه سلة خشبية صغيرة فيها عشر بيضات بيضاء:

– "ستدخل السوق، تسير بين الناس، تصرخ مثل البقية: بيض... بيض. لكن كل خمس خطوات، ستتنظر إلى نقطة معينة. نريد معرفة عدد الجنود... أين يقفون... ومتى ينظرون."

ارتدى"الطّاهر" جلبابًا مرقّعًا، شدّ وسطه بحبل خشن، وارتدى حذاءً ممزقًا من جهة الكعب، كأنّ فقره الحقيقي، لا يقدر أن يُنافس فقر تنكّره.

دخل السوق كأنَّه دخله ألف مرة. الصياح، الدخان، الروائح المختلطة بين الحمص والعرق، والعيون التي تعرف كل الغرباء... ولا تسأل أحدًا من أين أتى.

سار ببطء، ينادي بصوت مبحوح:

– "بيض... بيض... بيض قروي، طريّ، طاهر."

كرّر الكلمة الأخيرة "طاهر" ثلاث مرات، **فهمها رجلٌ واقف أمام بسطة النعناع.** أومأ برأسه خفية.

كانت تلك **الإشارة الأولى: "أنا هنا."**

مرّ من أمام عربة يقف عندها **جندي فرنسي طويل، بشارب كثيف كأنَّه فرشاة تنظيف وطن مسروق.** كان يضحك مع المترجم، ويأكل فاكهة محفوظة في علبة معدنية.

اقترب الطّاهر، ومدّ له البيض.

– "بيض يا سيدي؟ "

نظر إليه الجندي بازدراء، ثم ناوله عملة نحاسية، وأخذ بيضتين.

ضحك المترجم وقال بالفرنسية:

– "ربما فيهما قنبلة."

ردّ الجندي:

- "على الأقل القنبلة الجزائرية لذيذة."

سجّل الطّاهر:

- جندي رقم 1... يأكل عند الساعة 15 :10.
- يتحرك قليلاً.
- يحب أن يضحك... وهذا خطير.
- لا ينتبه لمن يقترب منه... إن كان فقيرًا.

ثم مرّ أمام "مقهى الهناء"، حيث يجلس **رجل بدين يرتدي بذلة أوروبية،** ويقرأ جريدة بالعربية والفرنسية.

همس"الطّاهر" وهو يمرّ:

- "بيض... بارد، مثل الأخبار."

سمعه الرجل، رفع عينيه، ثم طوى الجريدة.

أومأ برأسه مرّتين.

الإشارة الثانية: "المكان نظيف."

في طريق العودة، باع آخر بيضتين لطفل صغير أعطاه حفنة تراب بدل النقود.

ابتسم الطّاهر.

وقال في نفسه:

- "الذي يشتري البيض بالتراب... صادق أكثر من الذي يبيعه بالنار."

في البيت، ناوله "عمّي علي" دفتراً صغيرًا. قال له:

- "دوّن كل ما رأيت. لا تترك شيئًا... حتى عدد الكراسي."

وفي اللّيل، كتب الطّاهر:

"أخطر دور في الحرب... ليس أن تُطلق، بل أن تتظاهر أنك لا تعرف شيئًا، بينما تعرف كل شيء."

"اليوم، كانت عيني بندقيتي، وصـــوتي مثل بيض هشّ... يحمل تحته نارًا."

"اللّيل الذي سرقنا فيه الرصاص"

في اللّيلة الرابعة بعد مهمة السوق، جلس "عمّي علي" تحت شجرة زيتون محروقة، وبدأ يُوزّع الأدوار على خمسة رجال. كان"الطّاهر" من بينهم.

قال أحد الرِّجال:

- "هو ما زال صغيرًا."ردّ "عمّي علي":

- "لكنه رأى ما لم تره أنت. وصـمتَ حين كانت الكلمات تخون. اليوم... سيكون بيننا. لا مقاتلًا، بل **مفتاحًا لبوابة النار**."

المهمة: - مخزن ذخيرة صـغير خلف الثكنة، تحرسـه كلبتان واثنتان من الحراس اللّيليين. -"الطّاهر" سيقودهم من الطريق الخلفي، عبر قناة مياه جافة، لأنه الوحيد الذي يعرفها جيدًا...لأنه كان يلعب فيها قديمًا، قبل أن يصير اللعب ممنوعًا.

في منتصف اللّيل، انطلقوا. القمر محجوب بغيوم تشبه **بطانية من الدخان الرمادي**. صوت النعال على الأرض يشبه أنفاس رجل خائف يحاول ألّا يُظهر خوفه.

دخلوا القناة.

زحفوا لمسافة خمسين مترًا.

الهواء ثقيل... والأرض تحتهم كأنَّها تتنفس معهم، تُذَكِّرهم أنهم فوق جغرافيا تعرف معنى **أن تُدفن واقفًا**.

وصلوا قرب المخزن.

كان"الطّاهر" أول من نظر من خلال الشقّ الصغير في الجدار المكسور.

رأى الحارسين. نائمين.

الكلبتان... لم تصدر عنهما حركة.

همس:

– "الوقت الآن."

تسللوا.

فتح أحدهم الباب بأداة معدنية خاصة، لا تُصدر صوتًا.

دخلوا كما تدخل الذكريات المؤلمة: بلا طرق، بلا استئذان، وبقلب مملوء بالرغبة... لا في الانتقام، بل **في استعادة جزء من الكرامة الموزّعة على فُوّهات البنادق الأجنبية.**

حملوا:

- عشرين خرطوشة.
- خمس قنابل صغيرة.
- ثلاث بنادق "موسكيت".
- دفتر به شيفرات فرنسية.

في طريق العودة، سمعوا صفيرًا. ثم صوت الكلاب.

لكن لم يكن مطاردًا... بل **تنهيدة صدفة في ليلٍ طويل.**

عادوا إلى القرية قبل الفجر.

وضعوا كل شيء على الطاولة الخشبية القديمة، وأمامهم وقف الطّاهر، ممسكًا بندقية واحدة — خفيفة، لكنها **أثقل من كلّ طفولته.**

قال له "عمّي علي":

– "اللّيلة... لم تحمل السلاح فقط. حملت معنا الذاكرة. وسرقتها من فم من أراد لنا أن ننسى."

وفي دفتره كتب الطّاهر:

"**حين تكون أصغر من أن تطلق النار... يكفي أن تُدلّهم على الطريق.**"

"**أنا الآن لستُ مقاتلًا فقط... بل أحد الذين أعادوا الرصاصة إلى يدها الأصلية.**"

من الآن فصاعدا... **يبدأ"الطّاهر" بفهم أن الرصاصة لا تكفي لحماية الحقيقة... بل تحتاج إلى حدسٍ أقوى من السلاح.**

"الخائن لا يُصدر صوتًا"

في اليوم الثالث بعد العملية، انتشر في القرية صمتٌ غريب. ليس الصَّمت المألوف الذي يسبق الغروب، بل **الصَّمت الذي يُشبه حبس الأنفاس قبل أن يقع شيء كبير.**

فجأة، طوقت القوات الفرنسية مدخل القرية.

جنود بأسلحتهم، كلاب تنبح، ضباط يرفعون دفاترهم كأنَّها كتب دين، وعيون تبحث لا عن المجاهدين... بل **عن أثر خيانة.**

أُغلقت الطرق.

فُتش بيت الحاج عمار.

ثم بيت "عمّي اعلي".

ثم اقتيد شاب لم يكن من رجال العملية... لكنه **كان يعرف، فقط يعرف.**

أمام المقهى، سأل أحد الجنود العجوز اسّي بن عيسى:

– "من أين جاء هؤلاء بالمعلومات؟ "

أجاب:

– "نحن لا نعرف حتى متى نموت... فكيف نعرف أين يضعون ذخائرهم؟"

لكن الضابط لم يقتنع.

كان يبدو... **أن هناك أحدًا تكلّم.**

في اجتماع سري، قال "عمّي علي":

– "هناك من باع نصف الحقيقة... وهذا أخطر من من يبيعها كلّها."

نظر إلى الحاضرين.

ثم إلى الطّاهر، وسأله:

– "هل رأيت أحدًا يراقبنا ليلة العملية؟ "

ردّ: – "لا. لكن حين عدنا... شعرت أن ظلًّا لم يكن لنا."

منذ تلك اللحظة، تغيّر كل شيء في عيون الطّاهر.

صار ينظر إلى كل رجل، كأنَّه احتمال. إلى كل ابتسامة، كأنَّها غطاء. إلى كل سؤال، كأنَّه مصيدة.

وفي السوق، لمح رجلاً كان يبيع الحطب، البارحة كان يضحك. اليوم، **وجهه مشدود، لا ينظر في العيون، يهمس أكثر مِمَّا يتكلَّم.**

عاد"الطّاهر" إلى البيت.

سأل أمه:

– "هل الخيانة تُحسّ؟ "قالت:

– "أحيانًا... لها رائحة. ليست كريهة، بل غريبة... تُذكّرك بالزيت المغشوش."

في اللّيل، كتب الطّاهر:

"**الخائن لا يُطلق النار... لكنه يفتح الباب لها كي تدخل.**"

"**البندقية لا تكشف الخيانة... لكن نظرة واحدة في وقتٍ غير مناسب... قد تقول كل شيء.**"

"**المحتل يخاف من الرصاصة... لكنه يرتعب من الصَّمت الذي يُخفي خائنًا.**"

"الصيّاد الذي يسير في فم المصيدة"

في المغارة القديمة تحت طاحونة الماء، اجتمع المجاهدون..

وجوههم مشدودة، العيون مشتعلة، والصَّمت مثل **قطعة حديد ساخنة في الحلق.**

قال "عمّي علي" وهو يُخرج خريطة قديمة:

– "لا شيء سُرّب إلا من الداخل. والداخل، هذه المرّة... ليس الغريب، بل من يشبهنا."

قال أحد الرِّجال:

– "نُراقب الجميع؟ "ردّ إبراهيم:

– "لن يُجدي. الخائن لا يُراقَب... بل يُستدرج."

ثم نظر إلى الطّاهر، وقال:

– "أنتَ... ستكون الطُعم. نُرسل إشاعة بأنك ستحمل رسالة جديدة إلى المدينة. نختبر من سيُسرّبها... ومن سيتظاهر بالنسيان."

صمت الجمع.

كان القرار ثقيلًا.

الكل يعرف أن الخائن سيُخبر الفرنسيين. وإذا صدّقوا... فربما يُقتل الطّاهر.

قال أحد الرِّجال:

– "لا يمكن أن نُخاطر به."

لكن الجدّ، الحاج بَنْسعيد، قال بهدوء:

– "الذي تربّى على الرصاصة، لا يخاف من الشائعة."

تم نشر الإشاعة بحذر:

"الولد الصغير... سيحمل رسالة إلى رجل مهمّ في المدينة، فيها أسماء."

تم تسـريب المعلومة إلى أحد الرِّجال المشـبوهين. وفي انتظار أن يتحرك، كان"الطّاهر" يتمرّن على الكذب من جديد.

– "إذا أوقفوني؟ "قال إبراهيم:

– "قل إنّك ذاهب لشـــراء دواء. لا تكثر الكلام. وافتح عينيك على من يقترب منك قبلهم."

في طريقه إلى خارج القرية، سار"الطّاهر" ببطء.

لم يكن خائفًا.

بل **مستعدًّا لأن يتحوّل إلى مرآة... تعكس وجه الخيانة، ولو كسرته.**

بعد ساعة... رآه.

رجلٌ مألوف، كان يبيعه الطباشير في المدرسة الفرنسية. اقترب منه وسأله همسًا:

– "هل تذهب للمدينة؟ "

ردّ الطّاهر: – "نعم، أبحث عن دواء. لماذا؟ "

فقال الرجل، وصوته يترنّح:

– "خذ حذرك... الفرنسيون قد يسألونك كثيرًا."

ثم ابتعد... لكن"الطّاهر" لاحظ شيئًا غريبًا:

الرجل لم ينظر إلى عينيه... بل إلى جيبه.

وكأنَّه يعرف أن فيه شيئًا، رغم أنّ الرسـالة كانت بيضـاء... لا شـيء فيها سوى حبة عدس.

رجع"الطّاهر" ليلاً إلى المغارة.

قال:

– "إنه هو."

– "كيف عرفت؟ "

– "لأنَّ عينيه كانت تُفتّشانّي، لا تُكلّماني."

في اللّيل، كتب:

"**الخائن لا يطلق رصـــاصـــة... لكنه يعرف أين تقع. ويغلق عينيه في اللحظة المناسبة.**"

"**أخطر من الذي يبيع وطنه... ذاك الذي يبيعه بســـعر رخيص، ويطلب منك أن تشكره بعد ذلك.**"

"آخر درس... لا يُلقى بالكلمات"

في ليلٍ مطريّ خانق، اجتمع رجال الخلية تحت شـجرة التِّين التي لم تثمر منذ عام المجاعة.

جلس"الطّاهر" بينهم.

لا أحد منهم سأله إن كان مستعدًا.

فقط العيون تتفحّصه كمن يُعاين خشبًا قبل إشعاله: هل يجيد الاحتراق بلا دخان؟ هل يُصدر نورًا أم مجرد رماد؟

قال "عمّي علي":

– "الخائن تأكدنا منه. وسينال ما يستحقّ. لكننا اليوم لا نجتمع لنتشفى... بل لنقرر: هل نواصل... أم نؤجل؟ "

رفع أحدهم رأسه:

– "نواصل."– "حتى إن عرفوا كل وجوهنا؟ "– "بل لأنهم عرفوها."

التفت الجميع نحو الطّاهر.

لم يُسأل.

لكن كان واضحًا أنّ عليه أن يقول شيئًا.

وقف.

ثم قال بصوت يشبه جرسًا صغيرًا داخل مسجد مهدّم:

– "أن تعرف السلاح، لا يعني أنك مقاتل. أن تحمل رسالة، لا يعني أنك ثائر. لكن... حين تفهم أن جسدك آخر حاجز بين العدو وأمّك... فأنت لا تحتاج تعريفًا."

صمت. ثم أضاف:

– "أنا لم آتِ إلى هنا كي أقتل. لكنني جئتُ لأنني تعبت من رؤية من نحبهم يموتون بلا معنى. فإن كان هذا السلاح وسيلتي الوحيدة لكي أمنحهم اسمًا، فليكن."

في الصباح التالي، كانت الشمس رمادية، كأنَّها لا تزال تخجل من أن تُشرق على بلدٍ ما زال يحفر في التراب بحثًا عن اسمه.

جلس"الطّاهر" أمام البندقية.

لا ليفككها. ولا لينظفها. ولا ليحفظ تعليماتها.

بل ليرى وجهه في لمعان سبطانتها.

ورأى نفسه.

ليس طفلاً.

ولا مقاتلًا.

بل **ظلًّا بين الاثنين، يبحث عن لحظةٍ واحدة يُطلق فيها النار لا ليُقتل، بل ليُسمع.**

وفي آخر صفحة من دفتره، كتب:

"**أول رصاصة لا تُطلق من البندقية... بل من أعماقك.**"

"**اليوم، دخلت الحرب... لا كهاوٍ، ولا كبطل، بل كاسمٍ لا يريد أن يُمحى من التاريخ.**"

"**انتهى زمن التدريب... وبدأ زمن الحقيقة.**"

رماد الأبرياء

"نارٌ بلا وجه، وطفلٌ يبحث عن بقايا جدّته"

لم تكن تلك اللّيلة مثل غيرها. لم تكن رياحها محمّلة بالغبار فقط، بل **برائحة لحمٍ محترق لا يُشبه ما يُطهى على النار، بل ما يصرخ تحتها.**

في أقصى الحي، اشتعلت دار آل "سعدة" — العجوز التي كانت تبيع الحليب الساخن كل صباح، وتمسح على رؤوس أطفال الجيران عند كل طلعة قمر. أحرقها الجنود الفرنسيون **لأن حفيدها ألقى عليهم حجرًا.**

كان"الطّاهر" في أعلى الجبل حين رأى الدخان يتصاعد من الزقاق. لم يركض. لم يصرخ. بل مشى كانت كل خطوة **تزرع في الأرض سؤالًا: "كم من الأبرياء يجب أن يُفنَوا كي يفهم العدو أننا لا نختبئ خلفهم؟"**[1]

حين وصل، لم يبق من البيت شيء. الجدران سوداء. الهواء متفحّم. والأجساد... **لا أجساد، بل ما يشبه أطيافًا التصقت بالأرض ثم هربت منها.**

رأى طفلًا صغيرًا — عمره خمس سنوات — يجلس قرب الرماد. وجهه أسود، ويداه ترتجفان.

قال له:

– "من أنت؟ "قال:

– "أنا حفيد سعدة... كنتُ أختبئ تحت السرير... لكنها نسيتني."– "أين هي؟ "– "هنا."

وأشار إلى حفنة رماد، فيها **عقد من خرز أخضر، كأنّ في عنقها كل يوم جمعة.**

---

(1) يطرح المقاومون في فلسطين السؤال نفسه خلال حرب الإبادة الجماعية التي يتعرض لها شعبهم في غزة على أيدي اليهود الصهاينة منذ السابع أكتوبر 2023.

لم يستطع"الطّاهر" أن يتكلم. أخذ الطفل من يده، وسار به نحو شجرة التين.

جلسا.

قال الطفل:

- "هل ماتت جدتي؟ "

ردّ الطّاهر:

- "لا. جدتك تحوّلت إلى دخان... كي لا يختنق الذين سيولدون بعدك."

وفي المساء، كتب"الطّاهر" على ورقة من جلد محترق:

"**الذين يموتون بلا سلاح... لا يُسمّون شهداء، بل يُتركون رمادًا.**"

"**لكننا... نحن من يجمع الرماد ويكتبه على الجدران: (هنا، ماتت جدتي واقفة).**"

"عقيدة النار... والتبرير المحترق"

في نشرة عسكرية رسمية وُزّعت على القيادات الميدانية، جاء في الفقرة الثالثة:

"القرى التي تحتضن نشاطًا معاديًا، وإن بالصّمت ، يُمكن معاملتها معاملة المواقع القتالية. ولا يُحاسب الجندي الذي يسبق النار بالاشتباه."

بكلماتٍ أكثر وضوحًا: "**احرقوا أولًا... ثم اسألوا الرماد.**"

في أسبوعٍ واحد، ثلاث قرى على سفح جبل الحلفاء... صارت **بقعًا رمادية على خريطة الجيش الفرنسي.**

- في قرية "بني عامر"، أُحرقت المدرسة بعد أن قيل إن المعلّم غاب يوم الخميس.
- في قرية "سيدي عبد القادر"، صُبّت براميل البنزين على سطح المسجد، لأنه صامت أكثر من اللازم.

- في "عين اسبع"، أشعلوا الحقول... لأن شجيرة واحدة كانت أطول من المتوقع، وربما تُخفي بندقية.

كان"الطّاهر" يمرّ كل يوم على قرية، ويعود في صمته **كمن يُشيّع الأمل مَرّتين في الأسبوع.**

قال الجد:

– "الفرنسيون لم يعودوا يقتلوننا... بل يقتلون الأماكن التي كنا نحبها."

ردّ الطّاهر:

– "هم لا يريدون موتنا...بل أن نعيش داخل الرماد، نمشي فوقه... ونقول: نحن بخير."

وفي مســـاء رمادي، عاد إلى بيته فوجد أن فاطمة تُنقّي العدس من رماد دخل مع الريح.

قالت:

– "حتى الطعام صار يحترق قبل أن نطهُوه."

ضحك"الطّاهر" ضحكة قصيرة، وقال:

– "حتى الحبر، صار لونه رماديًا حين أكتب كلمة (قرية)."

في اللّيل، كتب:

"**العدوّ الذي يحرق الحقول لا يخشى المحاصيل... بل يخشى أن نُخبّئ تحت القمح جملةً تقول (لن ننسى).**"

"**صار الرماد أرضنا، وسقفنا، وطعامنا...وصار الموت خبزًا محروقًا نقدّمه للأطفال، مع وعدٍ قديم: اصبر... فالفجر سيأتي.**"

"يوم أكل الناس على مائدة العسكر"

في صباح يومٍ مشمس، توقّف رتل عسكري فرنسي عند أطراف "دوّار اسرور"، نزل الجنود بثياب نظيفة، أحذيتهم لامعة، والضابط يمسك بملفّ أحمر...كأنَّهم قادمون لعقد صفقة عقارية، لا لارتكاب مجزرة.

أمر الضابط بتجميع السكان في ساحة المسجد. أكثرهم نساء، شيوخ، وأطفال بعيونٍ مشقوقة من النوم.

صرخ المترجم:

– "سنجري تفتيشًا بسيطًا... من يتعاون، يعود إلى منزله."

لكن لم يكن هناك تفتيش. بل كان هناك **سيناريو جاهز.**

اصطفَّ عشرة رجال على الحائط الجنوبي.

أمرهم الضابط أن يرفعوا أيديهم.

سأل عن "عبد القادر" — وهو اسم متكرر في كل بيت —لكن لم يجب أحد.

فقال ببرود:

– "كل من لا يعرف عبد القادر... لا يعرف الحياة أيضاً."

ثم أشار إلى أحد الجنود، فانطلقت **أول رصاصة. ثم الثانية. ثم تسع رصاصات، فصار الحائط أحمر.**

الناس تجمّدوا.

لم يصرخ أحد.

كأنّ الجميع فهم أن الصوت التالي... قد يكون اسمه.

كان"الطّاهر" هناك. لم يَرَه أحد. كان خلف شجرة تين ميّتة.

يداه على فمه. عيناه مفتوحتان كأنها لم تنفتح من قبل.

ورأسه يدوّي بجملة واحدة: "**لو لم أكن شاهدًا... لظننت أن هذه قصة عن ماضٍ بعيد.**"

بعد انتهاء المجزرة، جلس الضابط على حجر وكتب في مذكّرته:

"تم التعامل مع حالات مشتبه فيها. لا مقاومة. لا إصابات بين الجنود."

عاد"الطّاهر" بعد الغروب، دخل البيت، خلع حذاءه، ولم يتكلم.

لكن في اللّيل...أخذ دفتره، ورسم عشرة خطوط، ثم كتب:

"**كل خطّ هو اسمٌ لم يُكتب على قبر. كل دمعة سقطت بصمت... كانت احتجاجًا صامتًا على لغة البارود.**"

"**هؤلاء لم يُقتلوا... بل أُعيد ترتيبهم في الذاكرة كي لا يُزعجوا التاريخ.**"

"الأمَّهات يكتبن على العظام كي لا يُمحى أولادهن"

بعد المجزرة، انتشر في القرية **اتفاقٌ صامت** بين النساء، لا أحد أعلنه، ولا أحد ناقشه.

لكن الجميع بدأ يفعل الشيء نفسه.

في اللّيل، كانت النساء يجمعن **عظام الحيوانات الميتة** — خرفان، كلاب، طيور —ويغسلنها جيدًا، ثم **ينقشن عليها أسماء من ماتوا برصاصة، أو حريق، أو دفن حي.**

لم يكن لديهنّ أحبار، فكنّ يستعملن:

- عصارة الفحم.
- رماد الأقمشة المحروقة.
- عصير التين الجاف ممزوجًا بالماء.

سُئلت امرأة عجوز، "الحاجه امْباركه"، عن السبب، فقالت:

– "لأن الجدران تنهار، والأوراق تُحرق، أما العظام... فتبقى بعد كل شيء. العدو يدفننا حفنة حفنة، ونحن نُخرج أسماءنا عظمةً عظمة."

في أحد الأزقة، مرّ "الطّاهر" فرأى امرأة تُنقّي عظمة ساق وتكتب عليها:

"**عبد المجيد بن أحمد مات عند الحائط الجنوبي لم يعترف... ولم يُغلق عينيه.**"

اقترب وقال:

– "هل ستدفنينها؟ "قالت:

– "بل سأضعها في جرّة الماء، لتشربها الأرض كل يوم، فتُنبت رجالًا يعرفون اسمه."

صارت **كل جرة ماء، كل تنّور خبز، كل قنينة طين... أرشيفًا للموتى.** ليس لتخليدهم فقط، بل كي تُصبح **الأسماء أكثر انتشارًا من رائحة النار.**

كتب الطّاهر:

"**الاحتلال يظنّ أنه يُفني الإنسان. لكنه لا يعرف أن أمًّا واحدة، يمكن أن تخلق وطنًا من عظمة واحدة... مكتوب عليها بالحزن.**"

"**أرادوا لنا أن نموت بصمت. فصرنا نكتب أسماءنا على ما بقي...كي لا يجدونا في القبر، بل في كل زاوية من الحياة.**"

"لعبة القبور... حين صار التراب دفترًا"

عندما كثر الموت، وكثرت الجثث التي لا تُدفن أو تُنسى، عجز الأطفال عن السؤال، وعجز الكبار عن الإجابة.

فابتدعوا طريقتهم الخاصة للفهم.

في ركنٍ من الحي، خلف جدار مهدّم، تجمّع ستة أطفال، تتراوح أعمارهم بين السابعة والحادية عشرة. كان "الطّاهر" يُراقبهم دون أن يتكلم.

فرشوا الأرض بالرماد، جلبوا عظام دجاج وبقايا حطب. حفروا بأيديهم قبورًا صغيرة، ورصّوا العظام فيها.

ثم بدأوا اللعب.

سمّوا أنفسهم: "فرقة حفّاري الأسماء".

وكان قائدهم، طفل يُدعى "خالد"، ابن الشهيد الذي مات محروقًا في فرن الطاحونة.

قال:

– "كل واحد منّا عليه أن يخترع اسمًا لميت، ويكتبه على حجرة، ويضع فوق القبر الخيالي شيئًا من ملابسه القديمة."

كانوا يقولون:

- "هنا دفنا رياض... مات وهو يبحث عن أمه."
- "وهنا دفنا سليمة... قُصفت وهي تغسل كفّيها."
- "وهذا قبر محمود... لم يمت، لكننا لم نره منذ أيام."

ولم تكن اللعبة عبثًا.

بل كانت طقسًا.

في نهاية كل دفن، يُمسكون بأيدي بعضهم، ويقولون بصوت خافت:

"**لن ننسى**."

ثم يُصفّرون، ويركضون في الحقل...كأنَّهم يطردون الموت بالركض.

رأى"الطّاهر" ما يفعلونه.

فاقترب ذات مرة، وسأل:

– "لماذا تفعلون هذا؟ "

قال خالد:

– "لأنّ الكبار حين يُقتَلون، تُصنع لهم جنازات...أما الأطفال... فيموتون في صمت، فنحن نُقيم لهم ما يشبه الحياة."

وفي أحد الأيام، بنى الأطفال "قبرًا كبيرًا" وكتبوا عليه:

"**الطفولة: وُلدت هنا... واحترقت قبل أن تتعلّم الكلام.**"

جلس"الطّاهر" طويلًا قرب هذا "القبر". ثم كتب في دفتـــــره، بخطٍ أكثر رجفانًا من المعتاد:

"**الذين يصنعون من الرماد ألعابًا...هم أول من يستحق أن نُعلّمهم حمل السلاح، لا ليقاتلوا، بل ليحموا قبورهم القادمة.**"

"**حين يصنع الأطفال مقابر وهمية، فهذا يعني أن الحقيقة ماتت من كثرة الإنكار.**"

"حين قالوا: لا بأس بالانحناء إن كان مؤقّتًا"

في إحدى الأمســيات المعتمة، بعد أن مرّت دورية فرنســية قرب أطلال المســجد المحروق، اجتمع رجال الحي عند منزل "ســي قدّور" — شــيخ في السبعين، كان يومًا مناضلًا... ثم صار يحذر من كثرة الحماسة.

قال وهو يُمسّد لحيته:

– "نحن خســرنا الكثير. الأطفال يموتون. النســاء لا يجدن الخبز. هل ننتظر أن تُمحى القرية من الخريطة؟ "

ردّ عليه أحد الشباب، "سليمان":

– "وما البديل؟ نُعلن الولاء؟ نُقدّم لهم أسماء المجاهدين كي نحصل على صفيحة زيت؟ "

تدخّل "سي قدور":

– "أنا لا أطلب خيانة. لكن... بعض الانحناء لا يضر، الريح إذا اشتدّت، لا تُكسِر من انحنى قليلاً."

في الزاوية، جلس الطّاهر، لم يتكلم.

كان ينظر إلى "ســـي قدور" كما ينظر المرء إلى مرآة قديمة لا تُظهِر ملامحه كاملة.

ثم همس:

– "هل تعلم يا سيدي، أن بعض الأشجار حين تنحني... تنسى كيف تعود واقفة؟ "

سكت الجميع.

لكن الفكرة بدأت تنخر في السقف.

وفي صباح اليوم التالي، نُقلت شائعة بأن بعض رجال الحي وافقوا على توقيع "ميثاق الحياد".

بمعنى: **لن نُسـاند الجبهة**[1]**، لكن لن نُبلّغ عنها. في المقابل... يُجنّبنا الفرنسيون الاجتياح.**

عاد"الطّاهر" إلى البيت، فوجد أمه تبكي — لا على من مات، بل على **من لم يعرف أنه مات وهو حيّ.**

قالت:

– "هل ترانا نُعلّم أولادنا أن النجاة أغلى من الكرامة؟ "

ردّ الطّاهر:

– "لا يا أمي...نحن نعلّمهم الآن أن الصَّـمت جريمة، وأن الركوع يُستحسن لمن يصلي فقط."

وفي تلك اللّيلة، كتب في دفتره:

(1) الجبهة: جبهة التحرير الوطني التي أخذت على عاتقها حمل لواء الجهاد حتى تحرير الجزائر.

"**الموت ليس دائمًا برصـــاصـــة. أحيانًا يأتي على هيئة ورقة يُقال فيها: (لن نحارب... فقط دعونا نعيش).**"

"**أخطر من المستعمر... ذاك الذي يُقنعك أن تعيش بسلام في فم النار.**"

"عندما كُشف الوعد في جيب الشيخ"

في صباح خريفيّ رمادي، انتشر همس في الحي:

"**سي الميلود... سلّم الفرنسيين خارطة الطريق نحو المغارة.**"

لم يُصدّق البعض.

"الميلود؟ حفيد الإمام؟ ذاك الذي كان يُعلّم الأطفال القراءة قبل أن تُحرق المدرسة؟ "

لكن التهمة كانت واضـــحة، والأدلة لم تكن فقط في الأوراق، بل في التفاصيل الصغيرة... التي لا يراها إلا من **تعوّد أن ينظر خارج الكلمات.**

في اجتماع سريّ للمجموعة، قال "عمّي علي":

– "ما أثبت التهمة... لم يكن الوثيقة."– "بل ماذا؟ "– "نظرة الميلود حين قلنا (الغد خطير)... كانت نظرة من يعرف بالضبط ما الذي سيحدث."

في مساء اليوم نفسه، أرسل الفرنسيون دورية إلى أطراف الجبل، مرت من الطريق نفسه الذي كان محفوفًا بالأفخاخ.

لكنهم لم يخطئوا خطوة.

كان **أحدهم أرشدهم إلى كل حفرة.**

نجوا من الموت...ورجعت الخلية لتجد أن "الميلود" اختفى، ثم عاد، بيده كيس دقيق أبيض، يُقال إنه هدية من القيادة الفرنسية "لرجل العقل".

واجهه"الطّاهر" عند بئر الزيتون. كان واقفًا وحده، والطفل يحمل بندقيته القديمة — لا ليُهدّد، بل كأنَّها جزء من ملامحه.

قال له:

– "هل صحيح أنك دللتهم؟ "ردّ الميلود، بنبرة ثابتة:

– "لم أُدلهم... فقط منعتهم من قتلنا جميعًا."

– "وفي المقابل؟ "– "وعدوني ألا يلمسوا زوجتي."

سكت"الطّاهر" لحظة.

ثم قال:

– "لكنهم لمسوا كل قرية."

– "لم أكن أملك خيارًا آخر."– "بل كنتَ تملك أن تسكت."– "الصَّمت لا يوقِف الموت."– "لكنه لا يُقدّمه للعدو على طبقٍ من خرائط."

في المساء، اجتمعت الخلية، وقُرِئ القرار دون صراخ:

"**سيُنفى الميلود من القرية. لا يُقتل. بل يُترك للريح... علّها تشرح له ما لم نشرحه بالسلاح.**"

كتب"الطّاهر" في دفتره، بخطّ غاضب:

"**الخيانة لا تُغتفر...لكن أحيانًا، حين تتخذ شكل العقل، تُصبح أضعف من أن تُطلق عليها رصاصة.**"

"**تركناه للريح... لأن الرصاصة حين تُطلق على الخونة، يجب أن تكون صافية... لا ملطّخة بالشفقة.**"

"أن تموت وفي بطنك فجر لم يُولد"

في فجر يومٍ ممزّقٍ بالبرد، اقتحمت فرقة فرنسية أطراف قرية "تلّ الرماد"، كأنَّها ذئاب تُنبح من الخلف، ثم تهاجم من الوجه... بلا تحذير، بلا سبب.

كانت "زليخة بنت بومدين"، في شـهرها التاسـع. أعدّت مهداً صـغيراً من أغصان الزيتون، وسجّلت اسم طفلها في دفترها: ""**الجيلالي**"".

كانت تقول:

– "سيكون ولادته في الربيع...سنُعلّمه أن المطر أقوى من النار."

لكن النار... جاءت أولًا.

حين اقتحم الجنود البيت، لم يسـألوا. ألقوا قنينة مشـتعلة على السـطح. صرخ الجيران، لكن الخروج كان مستحيلاً.

اشتعل السقف. اختنق الهواء. وكانت زليخة جالسة قرب النافذة الصغيرة، يداها على بطنها، وعيناها مفتوحتان نحو الخارج.

لم تهرب.

بل أمسكت بجلبابها، ورفعت صوتها، وغنّت بصوت متهدّج:

"**يا ولدي، إن جئتَ ولم تجدني...فاعلم أنني سـبقتك لأفرش لك الطريق بنار لا تحرق الصادقين.**"

"**وإن رأيتَ ترابًا فوق اسمي...فاكتبه من جديد على الجدران، وقل إن أمك كانت تحلم، لا بأن تعيش... بل أن تراك حُرًا.**"

ظلّ صوتها يُسمع بعد اشتعال البيت كلّه. شاهد ذلك صبيٌّ صغير، ركض إلى الحي، وقال:

– "المرأة الحامل... كانت تغني."

في اليوم التالي، نُقل الرماد إلى السـاحة، ولُفّت قطعة من ثوبها المحترق بخرقة بيضاء، دُفنت في ظلّ التين، ووُضع عليها حجرٌ نُقش فيه:

"**هنا احترق قلبان في جسدٍ واحد. الأم... والطفل الذي لم يشهد العالم.**"

تحوّلت صرختها إلى نشيد:

كان الأطفال يهمسون به في الأزقة:

"نامي يا زليخة نامي...فالنار لا تُطفئك، بل تُشعل فينا الطريق."

وكتب"الطّاهر" في دفتره:

"حين تُقتل امرأة حامل... فذلك ليس قَتلًا، بل إعلان حربٍ على الزمن القادم.":

""الجيلالي" لم يُولد...لكنه صار فينا شمعة تُضيء... لا لتُرينا الطريق، بل لنتذكر لِمَ نسير فيه."

هُنا احترقْنا والدُّموعُ تُفَجَّرُ　　والقلبُ بينَ جراحِنا يتكسَّرُ

قلبانِ في جَسدٍ تساقَطَ صَمتُهُ　　فتكلّمَتْ في صمتِه الأنفاسُ تُذكَرُ

أمٌّ تلفّعَها الحريقُ فأشرَقَتْ　　بالنورِ، وهيَ بنارِها تستعرُ

نادَتْ، فما لبّى النداءَ سوى الدُّجى　　لكنّها بنشيدِها تتصدَّرُ

غنَّتْ، فغنَّى الطفلُ قبلَ ولادةٍ　　وغدتْ مآقي الحيّ فيها تُبصِرُ

"نامي زليخةُ، لا تُطفئكِ اللهَبُ　　بل فيكِ نارُ السائرينَ تُسَعِّرُ

وكتبْتَ يا طهْرَ الدفاترِ مرثيًا:　　"قَتلُ الحواملِ ليس قتلًا يُغفَرُ

بل إنها حربٌ على زمنِ المدى　　ومدى الزمانِ إذا أُريقَ تُكسَرُ

نورُ الشـــــهيـدِ، وإن يُوارى جنينُـــهُ   يبقى كنجمٍ في الظلامِ يُســـفِرُ

لم يُولَـدِ الطفـلُ البريءُ، ولكن   فينا اشـــتعلْ، وســـناهُ لا يتعثَّرُ

ما كانَ نورُكَ يا صـــغيري غايَةً   لـكـنْ دلـيـلٌ أنّـنـا نـتـغـيَّـرُ

نمشـــي على دربِ الدّماءِ، ونذكرُ الـ   سِّـــرَ الـذي لأجلـهِ نســـتبشِـــرُ

"الهاربون إلى وطن لم يتعلّم بعد كيف يفتح بابه"

بعد ليلـةٍ من المداهمات المكثفة، وبعد أن أُلقي القبض على أحد رجال الخلية في السوق، اجتمع "عمّي علي" سرًّا بثلاثة رجال، كان من بينهم الطّاهر، و"مراد بن قدور" الذي كان يجيد تزوير الوثائق.

قال إبراهيم:

– "أسماءكم صارت تُتداول بين العسكر. وكل بيت تنامون فيه، يصير بيتاً محكوماً بالحرق."

ثم أخرج من كيسٍ قديم **خريطة مهترئة**، أشار فيها إلى الحدود الجنوبية:

– "هذه البلاد... التي حرّرت نفسها من المستعمر الأوروبي قبل عام، قالوا إنها مفتوحة لكل مقاوم. لكن الطريق طويل، والمسافة بين الخريطة والحقيقة... أكبر مما تظنون."

انطلقوا ليلًا: خمسة رجال، ثلاث بنادق، قليل من الماء، وشـيء كثير من الصَّمت .

الطّاهر لم يكن يتكلّم. لكنه كان يشعر كان كل خطوة تُبعده عن جرح أمه، وتقوده إلى جرحٍ جديد لا يعرف شكله بعد.

بعد سبعة أيام من المسير عبر الوديان الجافة والرمل الثقيل، وصلوا إلى الحدود. كان الحرس ودودين في البداية.

– "أنتم مجاهدون؟ أهلاً بكم."لكن بعد يومين، تغيّرت النبرة.

– "من أين لكم هذه البنادق؟ من سلّحكم؟ هل أنتم ثوار... أم شيء آخر؟"

في اليوم الرابع، جُرّدوا من أسلحتهم. ثم أُودعوا سجنًا صغيرًا في ضاحية نائية.

لم تكن هناك محاكمة. ولا أسئلة حقيقية. بل فقط تهمة واحدة:

"**حيازة سلاح خارج القانون.**"

قال مراد:

– "لكنّنا لا نُهددكم... نحن نهرب من احتلال**!**"ردّ الضابط:

– "بل تهربون بسلاح... وهذا يُرعب كل نظام حديث الولادة."

بقي"الطّاهر" في الزنزانة خمسة عشر يومًا.

كانوا يأخذونه كل مساء للتحقيق. لكن لم يكن هناك تحقيق. بل **أسئلة مكررة**، ووجوه تتغيّر، وابتسامات باردة:

– "قل لنا: من موّلكم؟ "

– "هل أنتم خلية عابرة؟ هل تعملون لحساب طرف آخر؟ "

كلّ من ينكر... **يسُحب الجواب من جسده لا من فمه.**

وفي اليوم السادس عشر... هربوا.

مراد استطاع أن يُقنع أحد الحراس، شابًا يكره رؤساءه، أن يعطيهم مفتاح الزنزانة، مقابل وعد:

"لن نطلق النار... فقط نخرج، ونختفي."

لكنّهم لم يرجعوا إلى القرية.

قال الطّاهر:

– "القرية الآن... ليست آمنة لنا ولا لأهلها. إذا عدنا، نحمل الخطر معنا."

سأل مراد:

– "إلى أين إذًا؟ "

فردّ الطّاهر:

– "إلى الجبال. الجبال لا تسأل من أنت..لكنها تحتضن من لم يجد حضنًا إلا الحجارة."

وهكذا، صعدوا.

في قمة جبل "اقروز"، بنوا مخبأً بين الصخور، نصبوا خيمة من أقمشة قديمة، وكتبوا على جدارها الحجري:

"**هنا، لا نملك أسماء رسمية، لكن لدينا سبب واضح لنحمل السلاح.**"

في اللّيل، نظر"الطّاهر" إلى السماء، وقال:

– "هربنا من النار... فوجدنا أنفسنا بين الرماد والحجر. لكنّنا على الأقل، ما زلنا نعرف إلى من نُوجّه الرصاصة."

ثم كتب في دفتره:

"**في كل وطن حديث... تكون الثورة ضيفة ثقيلة. يُرحّبون بها في النشيد، ويحبسونها حين تأتي بثياب متعبة.**"

"**نحن الآن في الجبال... لا لنختبئ، بل لنستعد لحقيقةٍ قادمة، تقول إن الحرية لا تُعطى... بل تُؤخذ ولو من تحت الرماد.**"

"في مدرسة الجبل... يدرّسك البرد قبل الرصاصة"

في صباح اليوم الثالث على سفوح جبل "اقروز"، استيقظ"الطّاهر" على صوت السّكون...ذلك السكون الغليظ الذي يسمعه من ذاق الصقيع على لحم قلبه، وليس فقط على جلده.

لم تكن هناك نار. فالحطب رطب. والأيدي المرتجفة لا تشعل شيئًا.

كان الطعام شحيحًا.

كل يومين... حفنة تمر، وشـربة ماء من وادي بعيد. لا حديث عن اللحم. ولا مجال للخبز.

فقط الحديث عن العدو، وعن اللّيل، وعن كلاب الفرنسيين التي تنبح حتى في الحلم.

كتب"الطّاهر" على صخرة بجانب خيمتهم:

"**في الجبل، لا تسألك الأرض: من أنت؟ بل تسألك فقط: كم فكرة تستطيع أن تحميها وأنت جائع؟** "

بدأوا يتناوبون على الاستطلاع.

كل ليلة، ينزل اثنان من الجبلويتقدمان حتى مشـــارف الحقول أو نقاط التماس، يراقبون الضـــوء في الثكنات الفرنســـية، ويســـجلون **الغياب** لا الحضور...لأن الفرنسيين لا يُخيفون حين يظهرون، بل حين **يختفون بصمت**.

في إحدى الليالي، خرج"الطّاهر" مع "حسين"، أصغرهم بعده. سارا ساعتين على الأقدام وسط الأحجار والرمال الباردة.

قال حسين:

– "هل نحن مجانين؟ كان يمكننا أن نموت في البيت ونُدفن بين أهلنا."

ردّ الطّاهر:

– "والمجنون...هو الذي يرى الموت يأتي، ثم يذهب ليضع ماء الورد على جسده بدلاً من السلاح."

رأيا الضوء البعيد..ثكنة الفرنسيين تُشبه قلعةً ميتة.

سمعا الضحك.

ضباط يحتفلون... بينما نساء الجبل يبحثن عن رماد صالح للطبخ.

سجّلا ما رأوه. وعادا ببطء، وكل حجرٍ تحت أقدامهم... **أشبه بجملة غير مكتملة من تاريخ لم يُكتَب بعد.**

في الخيمة، كتب الطّاهر:

"**الجوع علّمني أكثر من الكتب. والبرد علّمني أن الوطنية لا تُلقى في خطب... بل تُنحت في عظام الأصابع.**"

"**نحن لا نعيش هنا كالفئران... بل أصحاب الأرض، الذين عادوا ليأخذوا ما تُرك من الكرامة بين الشوك والجليد.**"

"الرصاصة الأولى... ليست لتقتل بل لتُوقظ"

في ليلة مكتنزة بالصقيع، اجتمع"الطّاهر" ورفاقه حول صخرة كبيرة محفورة عليها شقوق عمرها ألف عام. كانت تلك الصخرة مقرّهم... منبرهم... مكتب عملياتهم.

قال"الطّاهر" بصوت منخفض:

- "نحن لا نملك الذخيرة الكافية لمعركة، ولا العدد الكافي لحصار. لكننا نملك ما يكفي لتذكير العدوّ أنه لم ينتصر بعد.."

الخطة كانت بسيطة:

- النزول من الجبل بعد منتصف اللّيل.
- الاقتراب من نقطة المراقبة الغربية للثكنة الفرنسية.
- إطلاق ثلاث رصاصات نحو البرج، لا للإصابة، بل **لإجبارهم على الرَّد.**

ردّ حسين بتردّد:

- "هذا جنون...سنُكشَف."

قال الطّاهر:

- "نُكشَف ونحن نقاتل، خير من أن نُكشَف ونحن ننتظر أن نُكتَشف."

تحرّكوا بعد منتصف اللّيل.

الريح تعوي كذئب فقد فريسته. الظلال طويلة، وكل صوت حجر... أشبه بصرخة.

كان في جيب"الطّاهر" ثلاث رصــاصـــات، وفي عينيه **كل من مات ولم يُدفن**، وفي قلبه صـــورة لوالدته، آخر مرَّة نظر فيها إلى عينيها... كانت تقول له:

"حين تُطلق أول رصاصة، لا تكن كارهًا... بل كن موقنًا."

اقتربوا من البرج.

رأوا الجندي المناوب... يتحرك داخل الغرفة الزجاجية.

رفع"الطّاهر" بندقيته، أخذ نفسًـــا طويلًا، وتذكّر "زليخة الحامل"، والطفل الذي رسم قبرًا وهميًا، والميلود الذي باع الخريطة مقابل حفنة أمان.

طلقٌ أول...

ثم ثاني...

ثم ثالث...

لا على الجندي، بل على الجدار.

صرخة الغبار أعلى من الرصاص.

اشتعلت الأضواء. أُطلقت صفارات إنذار. وخرج الجنود بأسلحتهم... لا يعرفون من أين جاءت النار.

لكن"الطّاهر" ورفاقه، كانوا قد انسحبوا عائدين نحو الجبل...يركضون كما تركض الذاكرة في زقاق النسيان.

في الصباح، قال حسين:

– "لم نقتل أحدًا."ردّ الطّاهر:

– "لكننا قتلنا اليقين عندهم... بأن الأرض نُظّفت."

كتب في دفتره الحجري:

"**الرصاصة الأولى لا يجب أن تُميت...بل أن تُحيي فكرة كانت على وشك الاختناق.**"

"**كلّ من استيقظ مذعورًا في الثَّكنة...سيعلم أن الجبل لا ينام، بل يخطِف أنفاسه كي يعود أقوى.**"

"حين قررت فرنسا أن تُفتّش الجبل حجرًا حجرًا"

بعد ثلاثة أيام فقط من العملية، بدأت مروحيات فرنسـية تُحلّق فوق جبل ""اقروز""، دوائر...ثم دوائر أضـيق...ثم صـمت...ثم **قذيفة واحدة في جوف الصخر**، لا لتُصيب، بل لتقول:

"نحن نراكم، ولو اختبأتم في عيون النّسور."

ثم بدأت الحملة.

أربع فرق مشاة.. كل فرقة بقيادة ضابط فرنسي يضع خريطة بين شفتيه لا في يده...كل كلب بوليسي مدرّب على **رائحة البارود الممزوج بالحليب القروي.**

قال حسين وهو يراقب عبر المنظار الصدئ:

– "إنهم لا يفتّشـون الأرض فقط..بل يفتّشـون عن الحكاية التي لم تُروَ بعدُ."

ردّ الطّاهر:

– "لأنهم يخافون ممن يروي... أكثر ممن يطلق النار."

في اليوم الخامس من الحصـار، لم يبق طعام. ولا ماء إلا ما يتجمّع في تجويف الصخور.

بدأوا في تقسيم الهواء.

كل واحد يتكلّم أقل، يتحرّك أقل، يتنفّس أقل.

وفي اللّيل... جاء الصَّمت الأكبر.

ذلك الصَّمت الذي يُشبه ما قبل ولادة الكارثة. أو ما قبل صرخة الأرض حين تُغتصب.

قال مراد:

– "إذا أمسكوا بنا، لن يُبقوا شيئًا."

ردّ الطّاهر:

– "لهذا... يجب أن نموت في حركتنا، لا في ثباتنا."

– "أين نذهب؟ "

– "لا نذهب... نُضلّل."

وفي الفجر، نصبوا خيمًا وهمية على السفح الجنوبي. أشعلوا نارًا صغيرة قربها، وتركوا آثار أقدام تقود إلى وادٍ مُنهار.

ثم تسللوا شمالًا...إلى تجويف داخل الجبل، لا يعرفه إلا القمر.

وبينما كانت فرنســـا تُلقي قنابلها على الخيام الفارغة، كان"الطّاهر" يكتب في دفتره الصغير، تحت ضوء شمعة مذابة:

"**أن تضلّل عدوّك ليس خداعًا... بل عدالة مؤقتة.**"

معركتنا لم تكن ضد فرنسا وحدها، بل ضد فكرتها المزمنة عنّا: أننا نُولَد كأنقاض، ويعاد دفننا كلّما أسقطوا لنا جدارا، وأننا لا نستسلم إلاّ بالقوة وبمزيد من القوة".

"المنحدر الذي أطلق علينا أسماءنا"

كان الفجر هشًّا، كان السماء تتردد إن كانت ستشرق على موتٍ جديد، أم على صمتٍ أشدّ من الموت.

كان"الطّاهر" واقفًا خلف صــخرة رمادية، يُراقب عبر منظار مهترئ. الريح تحمل رائحة الحديد. والأرض ساكنة...ساكنة كجسد أمٍّ تنتظر أن تعود صرخة ابنها.

ظهر أول جندي فرنســـــي.. ثم الثاني. ثم أربعة...يتقدّمون بحذر، كأنَّهم يمشون فوق فم الشك.

في يد أحدهم جهاز لاسلكي. وفي الآخر بندقية مرفوعة بلا خوف.

همس حسين:

– "هل نطلق؟ "

ردّ الطّاهر:

– "لا... ننتظر أن يصبحوا قريبين بما يكفي كي يسمعوا الرصاصة وهي تنطق باسم الأرض."

عند الشجرة المحروقة، أشار الطّاهر. فانطلقت الرصاصة الأولى.

ثم الثانية. ثم الرنين الغريب الذي لا يشـبه أيّ معركة، بل **يشـبه قيام لغة قديمة من تحت الأهرامات.**

ركض الجنود نحو الصخور. صراخ. ردّ ناريّ عنيف. غبار يصعد لا من الأرض فقط، بل من الحلق.

قُتل حسين...

رصـــاصـــة واحدة...دخلت من كتفه وخرجت من حلقه. ســقط، وعيناه مفتوحتان على السماء.

قال له"الطّاهر" قبل أن يغيب:

– "إن صعدت إلى هناك...فأخبرهم أننا لم نمُت جوعى، بل واقفين."

دام الاشتباك ثمانية عشر دقيقة. ثمانية عشر قرنًا في ذاكرة الطّاهر.

انسحب الفرنسيون — لا هزيمةً... بل **دهشة.**

من أطلقوا عليهم الرصاص لم يكونوا فرقة...بل خمسة رجال بثياب ممزقة، وجبل لا يريد أن يموت.

في اللّيل، دفن"الطّاهر" حسينا.

حفرة صــغيرة بين حجرين. لا نعش. لا كفن. فقط ســترة"الطّاهر" القديمة، وصفحة من الدفتر، كتب عليها:

"**هنا، نام جسدُ من قرأ الوطن على هيئة بندقية...لا ليقتل، بل ليموت كي لا يُقتل الجميع.**"

ثم كتب:

"**أول مواجهة...علّمتنا أن الرصـــاصــــة التي نُطلقها، قد لا تقتل العدو، لكنها تمنع التاريخ من الانتحار.**"

"الشموع التي أنارت القرية.."

في تلك اللّيلة، رأت امرأة تُدعى "خيره"، زوجة أحد المجاهدين، ضوءًا غريبًا على حافة الجبل، ليس نارًا، ولا برقًا، بل شــيءٌ يشـبه **دمعةً تسـقط ولا تصـيب الأرض.**

قالت في سرّها: – "أحدهم قُتل اللّيلة...لكن لم يمت في الصَّمت ."

وفي اليوم التالي، انتشـرت أخبار الاشـتباك: "خسـائر في صـفوف الجنود الفرنسيين...انسحاب تكتيكي من سفح "اقروز"...واختفاء جثّة واحدة: حسين بن اعلي."

نساء الحي لم ينتظرن تفاصيل النشرات.

ففي الغروب، خرجت امرأة من بيتها تحمل شـــمعة قديمة، نصـــبتها على رأس التلّة. ثم لحقت بها امرأة أخرى، ثم ثالثة...

ولم يسألن بعضهن: لماذا؟

كانت النار الصغيرة **أفصح بيانا وأقدر على الإيضاح مما لم يستطع الرِّجال بيانه.**

قالت "الحاجه امْباركه":

– "إذا لم نستطع أن نُطعمهم...فعلى الأقل، نُرسل لهم ضوءًا صغيرًا، كي لا تظنّ جبالهم أنها بلا أهل."

في اللّيلة الثالثة، أضاءت 23 شمعة، كل واحدة تُشعلها يد، وكل يد ترتجف لا من البرد، بل من الحنين الممنوع.

كان"الطّاهر" فوق الجبل. رأى الأضواء الصغيرة تتراقص، مثل **أرواحٍ تحرسه دون أن تناديه.**

جلس عند فم الكهف، وقال لمراد:

– "أرأيت؟ لسنا وحدنا. هناك في الأسفل...من يُضيء لنا ما لم نعد نراه في عيون بعضنا."

ثم كتب، على حجر مسطّح:

"**هؤلاء النسوة لم يحملن البندقية، لكنهنّ حملن الضوء في زمنٍ كانت الرّصاصة أسهل من الأمل.**"

"**في كل شمعة على حافة الوادي، قلب يقول: نحن هنا... ننتظر، لا موتكم، بل عودتكم.**"

"العودة إلى البيت الذي لم يبقَ في مكانه"

بعد أربعة عشر يومًا من الصَّمت ، بعد دفن حسين، وبعد أن صارت الشموع تظهر كل ليلة في الحقول، قال"الطّاهر" لمراد:

– "سأنزل اللّيلة."

– "إلى أين؟ "– "إلى أمّي."

– "هذا جنون. القرية مراقبة. الحواجز في كل ممرّ. ورائحتك وحدها كافية لجعلهم يطلقون النار."

ردّ"الطّاهر" بهدوء:

. "إن لم أَرها الآن... فلن أُسامح الموت إذا سبقني إليها."

تسلّل تحت جنح اللّيل، متخفّياً في لباس راعٍ، سحب عمامته على وجهه، وخبّأ بندقيته في كيس قمح.

سار على أطراف الوادي، تحت ظلّ التّين اليابس، وحين وصل مشارف الحيّ...توقف قلبه.

البيت...لم يكن هناك.. ولا حتى أثره..

فقط مساحة ترابية، فيها حجارة سوداء مبعثرة، وشظايا زجاج، وبقايا "طاجين" محطّم، وخرقة كان يعرفها...قطعة من غطاء فاطمة.

جلس على الركبة.

لامس الأرض بأصابعه.

كان التراب كان أحنّ من كل شيء.

مرت به امرأة عجوز، نظرت إليه مليًّا، ثم همست:

– "أنت يوسف الصغير؟ "

لم يردّ.

قالت:

– "أمك كانت هنا...قبل أن يأتوا بيومين فقط. سألت عنك...ثم جلست على الأرض، وقالت: (سأنتظر هنا حتى يعود). لكنهم لم يتركوها تنتظر."

– "أين ذهبت؟ "

– "لا نعلم...لكنهم أخذوها مع ثلاثة آخرين، قالوا: للاستجواب."

– "هل عادت؟ "

– "لا. لكن الشجرة ظلت تبكي ليلتين بعد رحيلها."

وقف الطّاهر، نظر إلى السماء، ثم إلى اللاشيء.

وأخذ قطعة من الغطاء المحترق، طواها، ووضعها في جيبه.

ثم همس:

– "عدتُ لألقاكِ...لكن يبدو أن الوطن يُجرّب الآن كيف يحرق الأمَّهات ببطء."

وقبل أن يغادر، حفر بإصبعه على جدار حجري باقٍ:

"هنا كان البيت. وهنا...كانت تنتظر امرأة لا تعرف أين ستنتهي الحكاية."

ثم كتب في دفتره:

"لم أعد لأرى... بل لأتحقق أن كل شيء انكسر. واليوم، عرفت أن بعض الحرائق... لا يترك رمادًا، بل فراغًا أوسع من القلب."

"البيت الذي لا يعود إلى مكانه...هو الوطن الذي يُطلب منك أن تظلّ تحبه، رغم أنه لا يعرف عنوانك بعد الآن."

"الوطن المتنقّل... حين تفقد البيت وتبقى النار"

عاد"الطّاهر" إلى الجبل قبل الفجر، يده خالية من الرصـــــاص، لكنّ جيبه يحمل خرقة محترقة، أكثر حرارة من بندقية.

لم يتكلّم أوّل النهار.

جلس بعيدًا عن الخيمة، ينظر نحو الســـهل الرمادي، حيث رأى ذات يوم دخانه الأول...والآن، لا يرى إلا غيابًا طويلًا لا يريد أن ينتهي.

اقترب منه مراد، جلس بقربه وقال:

– "لم تجدها؟ "

هزّ"الطّاهر" رأسه، ثم قال:

– "وجدت الوطن كله ملفوفًا في خرقة رماد. ولا شـيء يمكن اسـتعادته... إلا طريقة القتال."

في مســاء ذلك اليوم، جمع أفراد المجموعة حول نار خافتة، وقال بنبرة غير مألوفة:

– "البيت الذي دُمّر، لا يُبنى الآن. لكنه يمكن أن يُدافَع عنه، بأن نتحول نحن إلى بيتٍ لا يُهاجَم. نصــير ظلًا. لا نملك مقرًّا. لا نملك اســمًا ثابتًا. نضرب... ثم نمشي... ثم نظلّ أثرًا خافتًا في اللّيل."

قال أحدهم:

– "لكننا سنتعب. لن نستطيع الاستراحة."

ردّ الطّاهر:

– "هل رأيتم أمًّا تســتريح؟ نحن الآن أمّهات الذاكرة. ولا يجوز أن نرتاح، إلا إذا رقد أول شهدائنا على حجر لا يخاف النار."

ابتكروا نظامًا جديدًا:

- لا مبيت في المكان نفسه ليلتين.
- كل فرد يحمل خريطته الخاصة.
- الطعام يُجمع من القرى، دون ظهور، ويُدفن في نقاط سرية.
- الرسائل لا تُحمل... بل تُوشم على الخشب، وتُلقى في الآبار.

قال مراد، وهو يربط سلاحه بقطعة قماش:

– "صرنا نبدو مثل أشباح."

ردّ"الطّاهر" بابتسامة متعبة:

– "والاحتلال لا يخاف شيئًا... مثلما يخاف من الشبح الذي يطرق بابه ولا يُرَى."

وفي اللّيلة نفسها، وضع"الطّاهر" الخاتمة على الصفحة الجديدة في دفتره:

"نحن الآن وطن متنقّل، لا نحمل جوازات، ولا أراضـــي، فقط نارًا تمشـــي، وتُضيء قليلاً... ثم تختفي."

"الذين فقدوا بيوتهم...هم الأكثر فهمًا لكيفية بناء وطن لا يُقصف."

"الكمين الذي أنطق الحجارة"

في اللّيلة التالية لاجتماع الحســم، أعدّ"الطّاهر" ورفاقه خطتهم الأولى، بلا خرائط رسمية، ولا أسلحة متطورة، فقط **صبر الصخر... وذكاء مَن ماتت قراهم وبقوا أحياء.**

الهدف: قافلة فرنسية صغيرة تعبر ممرّ "خنقة الخروب"كل يوم أربعاء عند الساعة 30 :4 عصرًا.

تحمل الغذاء، ذخيرة، وأحيانًا... تقارير استخباراتية.

نصـــبوا الكمين من أعلى الجرف: صـــخرة مفرغة وضـــعوا فيها بندقيتين مثبتتين. قنينة زيت قديم تُرش على الحصـــى في المنحدر. وصـــوت صـــفير صغير... **إشارة الانقضاض.**

قال الطّاهر:

– "لن نُطلق عليهم حتى يقتربوا منّا كما تقترب الكذبة من عنق الحقيقة."

مرّت القافلة في موعدها. ثلاث شاحنات. ثمانية جنود.

في اللحظة المناســـبة، أطلق"الطّاهر" أول رصـــاصـــة. ثم تدحرجت الصخور...ثم سُمعت صرخة واحدة...ثم صوت البنادق المتعاقبة **كالنداء في صلاة الغائب.**

لم تستمر العملية أكثر من سبع دقائق.

ثلاث جثثواحتراق مركبةوصندوق وثائق وقع في الوادي.

والمجموعة؟ اختفت كما خُطّت في الريح.

في اليوم التالي، الإذاعة الفرنسية تعلن:

"مجموعة إرهابية مجهولة تهاجم قافلة في جبال "اقروز". لا معلومات عن هويات المهاجمين."

لكن الناس في القرى كانوا يقولون شيئًا آخر:

- "الأشباح عادت. أشباح الطّاهر... الذين لا يملكون أرضًا، لكن عندهم رصاصة تكفي لقول كل شيء."

وفي أحد الأسواق، رسم طفل على جدار الحنّاط:

صورة ظِلٍّ يرفع يده اليمنى...وتحتها عبارة: "**ضربوا... ثم لم يتركوا حتى أثرًا في التراب.**"

في الجبل، كان"الطّاهر" يقرأ الوثائق التي جمعوها من المركبة المحترقة. وجد فيها معلومات عن **المخبرين، عن تحرّكات المجاهدين، عن أسماء لم تُكشف بعد.**

قال مراد:

- "لو لم ننفّذ الكمين...لكُشفت القرية كلها."

ردّ الطّاهر:

- "كل رصاصة وُلدت اللّيلة...أنقذت ألف اسمٍ من الموت قبل الإعلان."

وكتب في دفتره:

"**العدوّ لا يُهزم بضربه...بل حين لا يستطيع أن يراك بعد أن تضربه.**"

"**نحن لا نقاتل من أجل المجد، بل لأن تحت هذا الجبل...أرواحًا معلّقة بانتقامٍ لم يُمنح لها فرصة العويل.**"

"عاصفة الحديد الأخيرة"

في فجرٍ رماديّ، كان"الطّاهر" يخطّ على جدار الكهف كلمة واحدة: "**سنعود.**"

لم يكن يقصد مكانا. بل زمنًا لم يُكتب بعد.

في تمام الساعة 45 :6 صباحًا، هزّ الجبل صوت لا يُشبه أيّ شيء عرفوه.

مروحية. ثم ثانية. ثم شاحنتان كبيرتان تلتفان من السفح.

ثم **صوت الضابط الفرنسي، عبر مكبّرٍ لا يحمل إلا التهديد المغلّف بالشفقة:**

"أيها الفارّون... هذا الجبل لا يحميكم، بل يسجنكم. سلّموا أنفسكم... أو سنُهدمه عليكم حجرًا حجرًا."

ابتسم مراد وقال:

- "الجبل لا يُهدَم...بل يسقط فوق من أراد إسقاطه."

ردّ"الطّاهر" وهو يُحمّل سلاحه:

- "نحن لا ننتصر اليوم، لكننا لن نموت صامتين."

بدأ القصف. قذائف من الأعلى. رصاص من السفوح. كل صخرة تتحوّل إلى انفجار، كل وادٍ يردّ الصدى كان الأرض نفسها تُنكر ما يحدث.

تحصّن"الطّاهر" والرفاق في ممرات ضيّقة، يُقاتلون بالرصاص، ثم بالحجارة، ثم بالكلمات:

- "هنا جبل لا يتكلم الفرنسية!"- "هنا لا تُستَخرج الاعترافات... بل الكرامة!"

في لحظة مفصلية، انقطع صوت الطلقات. الدخان كثيف. الجدران تهتز. والسماء تُطلق لهبًا بدل المطر.

لكن"الطّاهر" كان ما يزال واقفًا، وجهه أسود من رماد المعركة، وعيناه لا تنظران إلى الجنود، بل إلى البعيد...

إلى رماد الأم، إلى ظلال الشموع في الحقول، إلى الأطفال الذين صنعوا مقابر وهمية وقالوا: "لن ننسى".

وبعد خمس ساعات، انسحب الفرنسيون.

لا لأنهم خسروا. بل لأنهم لم يفهموا كيف تصمد مجموعة**من الجوعى، المقطوعين، المحترقين...ويظلون يقاتلون وكأنّ الأرض تُكلّمهم.**

في المساء، كتب"الطّاهر" السطر الأخير على جدار الكهف، قبل أن يتركه لمهب الريح:

"**هم أطلقوا النار...ونحن أطلقنا الذاكرة. كل طلقة عندهم كانت أوامر، وكل رصاصة عندنا كانت عزاءً متأخرًا... لأمٍّ لم تنتظرنا.**"

"**الرماد لا ينتهي حين تهبّ عليه الريح...بل حين يصبح أرضًا يُزرع فيها من جديد.**"

الفجر الذي لا يعرف الأسماء

"شهيد بلا اسم..مجهول في الأرض معلوم في السماء"

كان الغروب داميًا تلك اللّيلة، لا من لون السماء، بل من صوت "الشهيد" وهو يسقط عند حافة "حَسْيان الذّيب"، رصاصة غادرة من كمين لم يُكتشف إلا بعد أن غطست الشمس في دمها.

لم يصرخ، لم يتأوّه، بل قال فقط:

"**أشهد أن لا إله إلا الله... وأن محمدًا رسول الله...**"

ثم أغمض عينيه، كأنَّه يعلم أن **ملك الموت قد جاءه مبتسمًا**، لا ليسأله، بل **ليفتح له الباب الذي لا يُغلق بعده باب.**

الطّاهر كان خلفه بأمتار. رأى الجسد يسقط ببطء، كأنَّه يسجد لا ينهار.

ركض، احتضنه، يده على صدره، عينه تلمح بقعة دافئة من الدم، تتسرب بين ضلوع الشهيد... كأنَّها **الحبر الأخير في كتاب الجهاد.**

قال"الطّاهر" وهو يهزه:

– "قلها ثانيةً، يا أخي..."

لكن الصوت غاب، وبقي وجهه **مشرقًا، كما يُشرق وجه الصائم حين يُفطر على موتٍ يحبه.**

الشهيد لم يكن معروفًا. اسمه الحَرَكي فقط: ""**حكُّوم**"". لم يقل لأحد عن قريته. لم يُفصح عن أهله.

كان يقول:

"**يكفيني أن الله يعلم من أكون. فإن أضاعتني الدفاتر... فسورة يس ستدلهم عليّ.**"

ســـحب"الطّاهر" جســـده على الأرض، ثم حمله مع مراد ومصـــطفى. دم الشهيد على ثيابهم كـ"وشم لا يُراد مسحه".

أخفوه في حفرة بين شجرتين، ثم وقفوا ثلاثتهم، وكبّروا:

"**الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر...**"

ثم قرأ"الطّاهر" بصوت خاشع:

﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا...**﴾

لكن حين وصل وقت السؤال، لم يكن عندهم جواب:

– "ماذا نكتب على قبره؟ "– "من يُبلّغ أمه؟ "– "هل سنُدفنه بلا اسم... ولا دعاء يُخصّص له؟ "

قال مراد:

– "إن كتبنا اســمه، جئنا بالعدو إليه. وإن لم نكتبه... ضـاع اســمه بين التراب."

الطّاهر ظلّ صامتًا.

ثم اقترب من الحجر الذي سيُوضـع على القبر، ورفعه ببطء، ونقش عليه بكعب سكين:

"**شهيدٌ عند الله، لا عندكم.**"

ثم غطاه بترابٍ ناعم، وغرس فوقه عود زيتون ميت.

في طريق العودة، لم يتكلم أحد. لكنّ الجبال كانت تُعيد الصدى وحدها:

"**الله أكبر... لا يُنسى من قُتل وهو يقولها.**"

وفي الكهف، فتح"الطّاهر" دفتره...وفي الصفحة البيضاء كتب فقط:

"**ســـقط اليوم شـــهيد...لا نعرف له اســـمًا...لكننا نعرف الله، ونعلم أن الشهداء لا يحتاجون إلى بطاقاتٍ تُوقّعها الحكومات.**"

"سجلات الأرض لا تفتح أبواب الجنة"

في ليلٍ بارد، عاد الرِّجال الثلاثة إلى الكهف.

وجوههم منطفئة، لكن بين أعينهم **وميض سؤالٍ لم يهدأ منذ وضعوا التراب على وجه "حكُّوم"**.

قال مصطفى أولًا، وهو يخلع سترته الملطخة بالدم:

– "ما فعلناه صواب؟ أن ندفنه بلا اسم؟ هكذا ببساطة؟ "

مراد كان يمسح سلاحه، توقف فجأة وقال:

– "أنا ما نمت وأنا مرتاح. في قلبي شـــيء يقول: هذا الذي ســـجد تحت الرصاص...يستحق أن يُكتب اسمه على جدار، أو يُنقش على سلاح."

الطّاهر ظل صامتًا قليلًا. ثم رفع رأسه وقال:

– "أعلم...أن في القلب غصّـــة. لكننا نُقاتل عدوًا لا يخاف إلا الأســـماء. ولو عرف اسمه...لأحرق بيت أمه، وأعدم والده، ونبش قبر أخيه."

صمت الجميع.

ثم قال مصطفى، بنبرة قريبة من العتاب:

– "ولكن ألا يقول رسول الله ﷺ:

اذكروا موتاكم بخير؟ فكيف نذكر من لم نُسمّه أصلاً؟ "

اقترب"الطّاهر" من النار، ألقى فيها قطعة قماش دامية، ورفع صوته:

– "ســـأقول لك ما يكفي يا مصـــطفى..."حكُّوم" لا يحتاج إلى لافتة كي يُعرف. فهو من قال: الله أكبر... حين صمتت الأرض. ومن استشـهد وساقاه في اتجاه القبلة."

ثم أضاف:

– "وإذا كانت الســـماء تحفظ الأســـماء، فهل نخاف أن تُنســـى في دفاتر البشر؟ "

لكن الحزن لم يكن في المنطق، كان في الروح.

كلّ واحد منهم كان يُفكر: "لو كنت أنا "حكُّوم"...هل كنت أَرضى أن يُنسى اسمي؟ "

بعد منتصف اللّيل، فتح"الطّاهر" دفتره وكتب:

"**من قال الله أكبر وهو ينزف، لا يحتاج إلى حروف على حجر. بل إلى أحياء يُقاتلون بعده باسمه... وإن لم يعرفوا اسمه.**"

"**سيُبعثون يوم القيامة في صفوف: المجاهدين، الصادقين، ومجهولي الأثر الذين عرفهم الله دون أن يعرفهم الناس.**"

ثم أغلق الدفتر، وأطفأ الشمعة، وقرأ بصوتٍ متهدّج:

"**ربّنا اغفر لنا، ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان.**"

"رؤيا الشهيد الذي لم يعرفه أحد"

في جوف اللّيل، بعد أن فرغ"الطّاهر" من تلاوة سورة يس، وغفَت النار كما يغفو الحارس بعد طول انتباه، غفا قلبه قبل عينيه.

رأى نفسه واقفًا في ساحةٍ واسعة، ترابية اللّون، تُطوّقها منازل بيضاء...وفيها أناسٌ بوجوه مطمئنة، أشبه بوجوه من أنهى صلاته ولم يخرج بعد من السكينة.

كان كلُّ من في الساحة يلبس الأبيض، وفي يده راية صغيرة مكتوب عليها: "**هذا اسمي...هذا دمي.**"

إلا رجلًا واحدًا...واقفًا وحده، وجهه منير كأنَّه الوضوء نفسه، لكن يده فارغة.

اقترب منه الطّاهر. عرفه فورًا.

هو "حكُّوم".

لكن الغريب أن الناس يمرّون قربه...ولا يسلّمون عليه.

وكأنَّهم لا يرونه.

قال له"الطّاهر" في المنام:

– ""حكُّوم"... أأنت بخير؟ "

فأجابه بابتسامة:

– "أنا عند ربّي... يُطعمني ويَسقيني. لكن في الأرض، لا يُناديني أحد."

– "لماذا؟ "– "لأنك دفنتني دون أن تنطق اسـمي."– "خشـينا أن يصـلوا إليك."– "ومن لم يَخشَ النار لأجلكم...كيف تَخشون أن تُسمّوه؟ "

ارتجف"الطّاهر" في الحلم.

أراد أن يُمسك يده...لكنها لم تكن هناك.

قال "حكُّوم":

– "الذين يُدفنون بلا اسم...لا يموتون، لكنّهم ينتظرون أن يُكتبوا، ولو على باب مغلق."

ثم أدار وجهه، ودخل إلى بيتٍ لم تُفتح أبوابه للطاهر.

استيقظ، والعرق على جبينه.

لم يكن نائمًا وحده، لكنّه شعر كأنّالجبل كله صمت فجأة ليسمع رؤياه.

في الصباح، خرج مبكرًا إلى البقعة حيث دُفن "حكُّوم".

ركع على ركبتيه، مسح التراب عن الحجر، ثم كتب بسكينه القديم:

"هنا رقد مجاهد، كان يُكبّر كلما سـقطت نجمة، واسـتُشـهد وهو يحمل في قلبه دعاء أمّه."

ثم جلس طويلًا، وقرأ الفاتحة.

وبين كل آية وآية، كان يتمتم:

"اللهم اجعل له اسمًا في السماء، وأثرًا في الأرض، وذرية من نيتنا، إن لم تكن من صلبه."

في اللّيل، كتب في دفتره:

"الرؤيا ليست حلمًا، بل تكليف يُكتب على القلب... لا يُمحى حتى يُنفَّذ."

"الشـــهيد المجهول...حاضـــرٌ في دعاء الأمهات، غائبٌ عن منابر الخُطباء.. منسيٌّ في دفاتر الدولة، مكتوبٌ في سجلّ الله.."

"حين بدأ الحلم يتراءى بين الرّكام"

كانت الأرض ما تزال ندية بالدم، لكن شـــيئًا غير مرئي كان يمرّ بين الجبال...

رائحة غريبة. لا هي رائحة البارود، ولا الشـــهداء، بل ما يُشـــبه التراب إذا لُمِسَ بالمطر بعد طول احتراق.

في ذلك الصباح، جاء "سي إبراهيم" راكبًا بغلة نحيلة، عيناه تُضيئان كما لو سمع خبرًا من السماء.

قال:

- "الفرنسيون...بدأوا يتحدثون."

- "عن ماذا؟ ".. قال"الطّاهر" سائلا.

فقال بصوت متهدّج[1]:

- "عن رحيل. عن استفتاء. عن أن الشعب سيُستشار... هل يريد الحرية."

ضحك "مراد" في طرف الخيمة، ضحكة خفيفة ساخرة:

- "يسألوننا... بعد 10 ملايين شهيد؟ بعد أن صار لكل أمّ قبرين، ولكل زيتونة جرح؟ يسألوننا الآن؟ "

---

(1) تَهَدُّجُ الصَّوْتِ : تَقَطُّعُهُ فِي ارْتِعَاشٍ وَعُلُوٍّ وَهُبُوطٍ.

ردّ"الطّاهر" كأنه ينظر إلى مرتفع بعيد:

– "لا يهمّ السؤال الآن...المهم أن الباب انفتح. ولو بشقّ الرصاصة."

ثم قام، وغسل يديه من السُّخام، ووقف تجاه الجبل.

قائلا:

– "هذه الأرض...كانت تتوضـــأ بالدم كل فجر، ثم تصـــلي الشـــهادة كل مساء. الآن...بدأت تتنفس بشهيق جديد."

بعد أيام، بدأت الأخبار تتســرّب عبر الإذاعات المهربة، ثم عبر رســائل ورقية، ثم عبر العيون.

"هناك مفاوضات في مدينة إفريقية بعيدة، يجلس فيها رجال بربطات عنق، يتكلمون باسم من ظلّ سنوات يحمل البندقية بأظافر يديه."

قال مصطفى ذات مساء:

– "هل نثق؟ أن لا تُسرق الثورة في آخر لحظة؟ "

فأجابه الطّاهر:

– "لا الثورة تُســـرق...لكن دماء البعض قد تُطمس، إن لم نكتبها قبل أن يجيء الحبر الرسمي."

ثم سكت الجميع.

كان الوطن نفســه ينتظر أن يعرف هل ما يراه هو فجر حقيقي...أم مجرّد ومضة في حُلم طويل.

في اللّيلة التالية، دخل رجل من المهجر الجنوبي. لحيته طويلة، عيناه شاحبتان. قال للطاهر:

– "أنا كنت في بلادٍ تدّعي أنها عربية، سُجنت فيها لأنني حملت ســلاحًا في وجه الاستعمار. واليوم عدت...لأشهد، ولو من بعيد، أن الشهداء لم يكونوا يكذبون."

ابتسم الطّاهر، أمسك كتف الرجل، وقال:

– "عدت إلى البلاد...لكن البلاد نفسها كانت تنتظرك كي تعود. ليس بجسدك...بل بحقيقتك."

ثم فتح دفتره، وكتب أول جملة بعد زمن طويل:

"قد يأتي الفجر بلا صوت، لكن من صلّى الشهادة في ظلامه...يعرفه حتى قبل أن يظهر."

"نحن لم نُقاتل من أجل أن يُقال لنا: اخرجوا. بل لكي ندخل نحن في التاريخ... من الباب الذي فُتح بالدم.""نعم... ولكن للحرية التي لا تُشتَرى"

في صباحٍ مشرقٍ لأول مرَّة بعد شتاء طويل، اصطف الناس أمام المدرسة التي لم تُفتَح منذ بداية الثورة. المدخل مائل، الجدران متفحمة، لكنهم جاؤوا...رجالًا ونساء، أطفالًا على أكتاف أمهاتهم، وشيوخًا بعكاكيز مهترئة، جاؤوا... ليقولوا كلمة واحدة على ورقة:

"نعم."

نعم، للحرية. نعم، لبلادٍ لا يُعلّق علمها بأمرٍ من باريس. نعم، لوطن لا يضع لغته في فم غيره، ولا يركع إلّا إذا صلى.

الطّاهر كان هناك.

مقنّعًا كعادته، واقفًا خلف نخلة، ينظر إلى الصف الطويل.

سمع امرأة عجوز، عمياء، تقول لابنتها:

– "اكتبيها عني... أنا أقولها بقلبي. قولي لهم: نعم...لكن قوليها كأنَّك تذبحين ظلّ فرنسا في الحنجرة."

لكن الفرح لم يكن نقيًا. فالطّاهر لمح من بعيد وجهًا يعرفه...لمح رجلًا كان في شبابه دليلًا للجنود الفرنسيين، ثم حلق لحيته، ولبس جُبّة، وصار يدعو للسلام من منبر جامع بُني على نفقة "صندوق التنمية الفرنسي".

قال مصطفى، واقفًا إلى جواره:

- "هل هؤلاء أيضًا يصوّتون؟ "

ردّ الطّاهر:

- "نعم. هؤلاء يصوّتون كي يُكتب في الدفاتر أنهم شاركوا، ثم يطالبون غدًا بنصيب في الغنيمة."

ثم أضاف، وقد اشتد صوته:

- "الخيانة لا تموت مع الاستعمار، بل تتعلّم كيف تغير شكلها."

وعلى الحائط المقابل للمركز، كان أحد الأطفال يكتب بالفحم:

"احذروا من الاستقلال الذي يأتي على صحن من فضّة...فربما حمله لكم طباخ فرنسي!"

في الزاوية الأخرى، رأى"الطّاهر" أحد أبناء الأعيان، الذي كان يبيت في ثكنة الفرنسيين كل خميس، يبتسم للكاميرا ويضع الورقة في الصندوق، ثم يهمس لمرافقه:

- "قل لهم أنني صوَّتُّ... حرًّا."

ضحك"الطّاهر" وقال:

- "صوَّت، نعم... لكن لصالح من؟ هذا ما لن تكتبه الورقة."

وبعد الاستفتاء، ارتفعت الزغاريد. انطلقت طلقات في السماء. قال المؤذن:

- "الله أكبر... الجزائر تُولد."

لكن"الطّاهر" تمتم وحده:

"الولادة لا تتمّ إلا بعد الألم. والحبل السري لا يُقطع بسكينٍ استعمارية."

وفي اللّيل، كتب في دفتره:

"نعم، صوّتوا. لكن حذارِ أن تعتقدوا أن الورقة تمحو التاريخ. فالتاريخ لا يُغسَل...بل يُحمَل على الأكتاف، كما يُحمَل الشهيد إلى مثواه."

"والحرية التي تأتي دون أن تُكمل عدّ الشهداء، قد تذهب دون أن تُودّعهم."

"العائدون... ليسوا جميعًا من قُطعت عنهم الطريق"

في محطة "خَنْقة الجمال"، عند طرف الوادي الذي ظلّ سنوات بلا قطار، أوقف القطار الفرنسي لأول مرَّة منذ بداية الثورة.

نزل منه رجال، نساء، أطفال...كان في عيون بعضهم الرجوع، وفي عيون آخرين الإعفاء من الحساب.

كان أحدهم يرتدي بدلة فاخرة، وينزل السلالم ببطء، يتطلع حوله كمن يرى بلده للمرة الأولى...

قال بصوتٍ خافت:

– "هنا كنت؟ لا أذكر أنِّي كنت هنا."

في الزاوية، عادت "خضرة بنت قاسي"، امرأة قضت ستّ سنوات لاجئة في المخيمات على حدود الشرق، نزلت من القطار تحمل طفلًا مات أبوه في الجبل.

وقفت على الأرض، ركعت، قبّلت التراب، وقالت:

– "عدت...لكن من وعدني أن يعود معي... سبقني إلى الله."

الطّاهر كان يراقب المشهد من بين النخيل. وجهه صامت، لكنه يشبه الأرض حين تنتظر المطر...وتخاف أن يأتي معها الطوفان.

اقترب منه مصطفى، وقال:

– "القطار حمل كل شيء...حتى من لم يستحق أن يعود."

ردّ الطّاهر:

– "هذا هو الابتلاء بعد النصـــر: أن تعرف من بقي وفيًّا...ومن نفض الرماد عن قلبه... لأنه صار يزعجه في الصور الرسمية."

رأوا رجلًا عاد من باريس، فتح حقيبته وأخرج منها صـــورًا قديمة، قال للناس: هذه ثورتي...ثم أشـار إلى صـورة فيها طاولة أنيقة وقال: – "كنا نخطط هناك... في صالونات فرنسا."

ضحك مراد وقال:

– "نحن كنا نخطط في الخنادق. وكان فطورنا من تمرٍ وحصـى، وغداؤنا من سورة الكهف."

ثم مرّت سيارة فارهة...داخلها مسؤول كبير عائد من المنفى.

فتح النافذة وقال لحارسه:

– "هل أحضروا لي مقرّ الولاية؟ وهل أُنجزت اللائحة؟ "

كان يســأل لا عن الشـــهداء، بل عن الحصـــص، عن الكراســـي، عن المرتبات، عن "التعويض".

قال"الطّاهر" بصوت كأنَّه يخاطب قبرًا:

– "لم نُقاتل فرنسا...لكي نُقلّدها حين تخرج."

في المساء، زار قبر ""حكُّوم""، جلس طويلًا. ثم همس:

– "أتعلم يا أخي؟ الاستقلال بدأ...لكن الاستقامة تأخرت."

ثم كتب في دفتره:

"العودة لا تكون بالأجســاد. بل بأن تخلع عنك عباءة الغريب...وتمشـــي حافيًا، ولو فوق الجمر، إلى البيت المحترق."

"الوطن ليس كلُّ من دخله، بل كل من عرف كيف يبكيه... دون أن يُتاجر بدموعه."

"دفتر الذين لا يُنادى عليهم"

في ليلة صــافية، جلس"الطّاهر" قرب موقد صــغير، أخرج من كيسٍ قديم دفترًا جلدياً، فتح صفحته الأولى...ولم يكتب فيها اسمه، بل كتب:

"هذا دفترٌ لا يحمل توقيعًا، لكنه يحمل أعظم الأســماء التي لم تُعلن. هنا سنكتب من لم تكتبهم الدولة، ولم تنقش أسماءهم على النُصب، لكن الله يعرف عدد رُكعهم وسُجودهم في ساحات الموت."

قال مصطفى:

– "دفتر جديد؟ "

رد"الطّاهر" وهو يشحذ قلمه الخشبي:

– "بل ذاكرةُ النار، التي لا تُطبع في الجرائد، لكنها تحرق كل من نسيها."

وفي اليوم التالي، بدأ رحلته.

مرّ على قرية اسمها "قاع الورق"، كانت في السابق ميدان اشتباك، والآن أطلال لا تُرى إلا لمن يعرف مكان الجرح في جسد الوطن.

دخل كوخًا من طين، وجد امرأةً طاعنةً في السّنّ ، قالت له دون أن يسأل:

– "أبنائي الثلاثة اســتُشــهدوا...لم يأتِ أحد يســأل عنهم. لكنني أكتب أسماءهم كل فجر على الحصير... ثم أمسحه بماء الدمع."

سألها الطّاهر:

- "ما أسماؤهم؟ "

فقالت:

- "بل أكتبهم لك على صدري..."

ثم فتحت ثوبها العتيق، وظهرت عليه خيوط خضراء، منسوجة يدويًا:

""الجيلالي"، رفيق، ومراد."

كتبهم الطّاهر، ثم أغمض عينيه، وقال:

- "اللهم اجعل ذكراهم نورًا لنا في كل طريق."

في قرية "المرجة السوداء"، وجد قبرًا صغيرًا مكتوبًا عليه:

"مجهول...قُتل وهو يقول: الله أكبر... ولم يكمل."

فكتب"الطّاهر" في دفتره:

"ربّما لم يُكملها على الأرض...لكنه أكملها في السماء، حيث لا تُقاطع التكبيرَ رصاصة."

على مدار خمسة أسابيع، زار 17 قرية، وجمع 143 اسمًا، و13 "ظلًّا" لا اسم له...لكن أهل الحي قالوا:

- "كان هنا، قاتل، وسقط، ولم يطلب شيئًا."

في كل صفحة، كان يكتب في أسفلها:

"يا رب، إن نسينا نحن، فلا تنسَهم أنت."

وفي اللّيلة الســـابعة من رحلته، وقف"الطّاهر" في أعلى الجبل، رفع الدفتر إلى السماء، وقال بصوتٍ لا يخاطب الأرض:

– "يا من تَعدّ أنفاس الخلق، هذا دفتري...فاجعل منه شـــاهدًا، إذا نســـيَ الذين سكنوا القصور... من سكنوا القبور."

ثم قبّله، ووضعه في كيسٍ جلديّ، ربطه على صدره، وقال:

– "لن أرتاح حتى أُكتب معهم، ولو بلا اسم."

"حين طُلب منه أن يتكلّم... فتكلّم عن غيره"

في صــباح يومٍ حارّ من تموز، وصــل مبعوث رســمي إلى الجبل، يحمل وثيقة مختومة بختم الدولة الجديدة، وموقعة باسم وزير "الذاكرة الوطنية".

قال للطاهر، وهو يمدّ له الدعوة:

– "أنت مدعوّ لحضور أول جلسة رسميةللجنة الاستذكار الوطني لشهداء الثورة."

تردد لحظة، ثم أضاف:

– "وسيُكرّم اسمك، ضمن قائمة القادة الميدانيين، وستُمنح وسام الجمهورية الذهبية."

لم يبتسم الطّاهر. بل نظر إليه، ثم قال:

– "هل يوجد على رأس القائمة...أسماء من لا نعرف عنهم شيئًا؟ "

قال المبعوث:

– "عذرًا؟ "

– "أقصد...هل هناك بين الأسماء اسم لامرأة ماتت وهي تصنع الخبز للمجاهدين؟ أو طفلٍ قتلته طلقة لأنه كان يصرخ: الله أكبر من فرنسا؟ هل أحدهم كتب اسم "حكُّوم"؟ "

ارتبك المبعوث. قال:

– "لدينا توثيق للمجاهدين الكبار فقط، أصحاب الرتب، والقيادة، والبلاغات."

رفع"الطّاهر" دفتره الجلدي، وضعه على المنضدة، ثم قال:

– "أنا لا أحتاج وسامًا. لكن هذه الأسماء...هي التي رفعت الجبل حين انكسرنا، وهي التي صمدت حين خفنا، وهي التي ماتت دون أن تُسأل من أين أنت."

في قاعة البلدية، في أول لقاء رسمي لتأريخ الثورة، صعد"الطّاهر" على المنصة.

تقدّم إليه أحد المسؤولين ليعطيه الوسام، فأوقفه بيده، وقال للجمهور:

– "أشكر دعوتكم، لكن إن لم نبدأ بالأسماء التي ضاعت...فكل ما سيُقال بعد الآن، سيكون خطابًا تأخر عن الجنازة."

فتح دفتره. بدأ يقرأ:

""الجيلالي" – لم يجد قبرًا.

زليخة – أُحرقت وهي حامل.

"حكُّوم" – نطق الشهادة وسكتت الدنيا بعده."

ثم قال:

– "هؤلاء هم النشيد الوطني الحقيقي. لا من رفعوا الشعارات في المؤتمرات، بل من ماتوا وهم لا يعرفون هل سيُذكرون أم لا."

وساد الصَّمت .

وكانت أول مرَّة لا تُصــفّق فيها القاعة بعد كلمة...بل يســجد الصَّــمت احترامًا.

وفي المساء، كتب"الطّاهر" في دفتره:

"**التكريم لا يكون بأن تُعلّق صورنا، بل بأن لا تُنسى صور من لم تُعلَّق أبدًا.**"

"**أنا لا أريد مقعدًا، بل أن يُقال في فجرٍ صــادق: (مرّوا من هنا... أولئك الذين قاتلوا ولم يُعرّفوا أنفسهم، لأنهم كانوا يعرفون الله فقط).**"

"النُّصب الذي لم يعرف شهداءه"

في أحد صـباحات ما بعد الاسـتقلال، توجه"الطّاهر" بصـمت إلى سـاحة جديدة افتُتحت في المدينة. قالوا له:

– "تعال، فاليوم تُزيح الستار عن مقام الشهداء."

وصل. كانت اللّافتات تُزغرد، وكانت فرقة الكشافة تنفخ في أبواقٍ لا تُشبه صــوت الجبل. رأى جدارًا ضــخمًا من المرمر الأبيض، نُقشــت عليه أســماء بالعشرات، بل بالمئات.

وقف أمامه، وأخذ يقرأ...اسمًا بعد اسم، بدأ الغيم يتلبّد في عينيه.

"فلان بن فلان، فلان قائد وحدة، فلان ناشط في التنسيق السياسـي، فلان كان يكتب للمجلة المركزية، فلان من عائلة بارزة..."

قرأ صفحة، اثنتين، ثلاث...

ثم قال في نفسه:

– "وأين "حكُّوم"؟ أين زليخـة؟ أين الطفل الذي دُفن في قفـة؟ أين محمود الذي مات مختنقًا برصاصة في الحلق؟ "

اقترب منه شاب أنيق، يحمل دفترًا ويكتب ملاحظات.

قال له الطّاهر:

– "من أعدّ هذه القائمة؟ "

أجابه:

– "لجنة التوثيق الوطني، أعدّها بناءً على ملفات المعتمدين، ومن أرسلوا تقارير رسمية."

قال الطّاهر، ساخراً:

– "تقارير؟ هل كانت زليخة تُرسل تقريرًا وهي تحترق؟ هل كتب "حكُّوم" شهادته قبل أن يسقط ساجدًا؟ "

سكت الشاب، وبقي"الطّاهر" ينظر إلى الجدار الكبير، ثم همس:

– "هذا النُّصب... جميل، لكنّه لا يعرف من يحمل اسمه، ولا يسمع مَن مات دون أن يقول له أحد: شكراً."

وفي طريقه إلى الجبل، جلس عند صخرة ظليلة، فتح دفتره، وكتب:

"**ليس كل من كُتِب اسمه شهيداً، وليس كل شهيد كُتِب اسمه.**"

"**الحجارة لا تُقيم العدل، بل يد الفقير التي ترفعها على الجبل وحدها تعرف معنى الدم.**"

ثم قال لمراد، الذي كان معه:

– "سنبني نُصبًا جديدًا...لكنّه سيكون من تراب الجبل، وحجارة القرى التي احترقت، ومن خشب الأبواب التي كُسرت في الغارات. وسنكتب عليه فقط: (هنا يرقد الذين لم يسألوا شيئاً... لكن الوطن دُفع ثمنه من أجسادهم)."

"البطل الذي طارد الاستعمار في كل مكان..."

كان"الطّاهر" منهمكًا في جمع الحجارة. يصـــعد الجبل ويهبط، ينتقي كل حجرٍ من مكان شهد ألمًا.

من بيتٍ احترق. من كهفٍ احتمى به الأطفال. من مســـجدٍ قُصـــف ولم تُكتمل فيه الركعة.

وبينما كان يُنزل الأحمال، وصله صوتٌ غليظ، كان مألوفًا... لكنه غريبٌ في النبرة.

التفت. ورآه.

"اسّي مولاي".

رجل في منتصف الستين، لحيته مشذبة، جبينه مشرّبٌ بتجاعيد حربٍ لم تُحكَ بما يكفي.

ركض"الطّاهر" نحوه، عانقه بقوة، وقال:

– "مولاي... عدت؟ "

فردّ "اسّي مولاي" بهدوء:

– "عدت... لا إلى وطن، بل إلى الذَّاكرة."

جلسا تحت شجرة التين القديمة. صمتا طويلًا، ثم قال الطّاهر:

– "قالوا إنك غضبت... وإنك خرجت إلى الشرق."

– "بل طُردت... بطريقتهم الناعمة."

– "لكنهم يعرفون من أنت... أنت من أول من حمل الســـلاح حتى خارج هذه الأرض!"

– "لا تنخدع يا طاهر. الذين حاربوا الاســتعمار لم يعجبهم أن أحاربه في بلدٍ عربيٍ آخر. اعتبروني مشبوهًا...قالوا: (مولاي يحمل في قلبه غيرنا)...ونسوا

أنِّي حملت نفس البندقية، وأطلقت النار على نفس العدو، وكان دمي على نفس التراب العربي."

سكت الطّاهر. لم يندهش. كأنَّه كان يتوقع هذا الخذلان من بلدٍ حرّره الدم، ثم أوكله إلى الورق.

أضاف "اسّي مولاي":

- "بعد الاستقلال، التقيت بشابٍّ لم يكن يعرف بندقية من بندقية، اليوم هو والي الولاية...وحين سألني أين كنت، قلت له: (كنت أقاتل الاستعمار قبلكم، في سوريا، في القناة، في كل بلد اغتُصب.) فردّ بابتسامة حارقة: (ربما تعلمت هناك كيف تكون جاسوسًا.)"

نكس"الطّاهر" رأسه. ثم قال:

- "وهل غادرت حقًّا؟ "

قال مولاي:

- "ذهبتُ إلى من لم ينسوا. هناك، أعطوني مفتاحًا صغيرًا...وقالوا: (هذا لبيت لا تملكه، لكنك فتحته لنا بدمك.)،

أما هنا...فلم يتركوني حتى أقف أمام مقبرة شهدائنا."

وقف الطّاهر، أمسك بيده، وقال:

- "أنت أول حجر سأضعه في نُصب الشهداء المجهولين...حتى وإن لم تُقتل، فأنت قُتلت من قلوبهم، وقُبرت في صمتهم."

في المساء، جمع"الطّاهر" الناس. ووضع في قلب النُصب حجرًا نقش عليه:

"**هنا نكرّم من خُوِّن بعد النصر، لأن نصره جاء مبكرًا، ولأن ذاكرته أكبر من الوطن.**"

ثم أضاف:

"اسّـــي مولاي، لم تمت، لكنهم أرادوا قتلك في وجداننا. وها نحن نرفض دفن المجد حيًّا."

وفي تلك اللّيلة، كتب"الطّاهر" في دفتره:

"اســـي مولاي... لم يكن رجلاً. بل كان تاريخًا خاف منه من لا تاريخ لهم."

"وحين يُتّهم المجاهد لأنه قاتل خارج حدوده، فاعلم أن الحدود ليســت جغرافيا...بل ضيقُ صدورٍ خافت أن تتسع كما اتَّسع صدره."

"ذاكرةٌ تُزرع بالحجارة، وتسقى بالدموع"

في صباحٍ لم يحمل غير نسمات صيف جاف، وقف"الطّاهر" عند حافة النُصُب. كان البناء لا يزال بسيطًا: ثلاثون حجرًا مرصوصًا، وبضعة أخشاب قديمة، وكتابات من الفحم، لكنّه صار **أصدق من كل جدارية معلّقة في مكاتب العاصمة.**

وفي الظهيرة، بدأت الوفود تأتي...ليس من القصور، بل من الأكواخ.

جاءت "لالة زينب" من دوار "الشُّـــرْفه"، تحمل في عباءتها قطعة قماش صغيرة، قالت وهي تضعها بين الحجارة:

– "هذه من قميص ولدي...ما لْقِيتْش قبره، لكن وجدت هذا المكان، فكأنّي دفنته أخيرًا."

وجاء شيخٌ أعمى من وادي الرمال، قال للطاهر وهو يلمس وجه الحجر:

– "يا ولدي، أنا فقدت بصري قبل خمس سنين، لكنّي أراك الآن...وتراني، لأننا نتشارك فيمن رحلوا ولم يُكتَبوا."

طفلٌ في العاشـــرة، اســـمه إبراهيم، جاء وحده، حمل معه بندقية خشـــبية صغيرة، صنعها بنفسه، وقال للطاهر:

– "هذي مش لعبة...هذي اسم ابَّا"[1]

ثم وضعها بين الحجارة، ومشى، كأنَّه سلّم ما ورثه... لمن يحفظ الودائع.

وضع"الطّاهر" يده على قلبه، ثم قال:

– "هذا المكان...لم نُشيّده ليُزار، بل ليُصلّى عنده...كلما أراد أحدهم أن لا ينسى."

وفي المساء، أخذ يجمع كل ما وضعه الناس: أقمشة ممزقة، صورًا قديمة، سُبحًا مكسورة، قنينة زيت، كِساءً لرضيع.

كتب على لوحة الخشب:

"ليس هذا متحفًا. بل موطئ ذاكرة لمن لا يجد قبرًا، ولا تذكرةً لحفل التكريم."

"من أراد أن يعرف الثورة حقًّا...فليأتِ حافيًا إلى هنا، ولا ينتعل الوهم."

سألته فتاة من المدينة، كانت تصوّر بكاميرا صغيرة:

– "هل هذا كلّه صدفة؟ أن يُبنى النُصب في الجبل لا العاصمة؟ أن يكون من طين لا من رخام؟ "

أجاب الطّاهر، بنبرةٍ مغموسة بالحقيقة:

– "الشـــهداء الحقيقيون...لم يعرفوا الرّخام. كانوا ينامون على الرّمل، ويستشهدون وهم يركضون بلا ظلّ، ويُدفنون في صمت الأمَّهات."

ثم أضاف:

– "ولذلك، لا يُكرَّمون في الأماكن التي تُدار فيها الكاميرات...بل في الأماكن التي تُدار فيها الدعوات."

ثم كتب في دفتره:

---

(1) ابّا: أبي، بالدارجة الجزائرية في الجنوب الغربي وبعض المناطق في الشمال الغربي للجزائر.

"ذاكرةُ الناس هي الوحيدة التي لا تموت. أما الذاكرة الرسمية... فتُنسى حين تُغلق الجلسة."

"لهذا، قررنا أن لا نُغلق هذا المكان...لأننا نخشى أن يغلق معه باب السماء."

"حين جاء الوفد بخُطبة جاهزة"

في ظهيرةٍ لزجة من أواخر شهر أوت، وصلت سيارة رباعية الدفع إلى سفح الجبل. فيها أربعة رجال أنيقين، بشعاراتٍ على صدورهم، وأصواتٍ ناعمة لكنها مشحونة.

نزلوا ببطء، اقتربوا من النُّصْب. واحدهم قال وهو يخرج دفترًا:

– "السيد الطّاهر...نحن هنا بقرار من الوزارة. نريد ضمّ هذا النُصْب إلى قائمة المعالم الوطنية للثورة. سيُعلن عنه رسميًا، ويُدرج في الخارطة السياحية، وسنمنحكم شهادة عرفان ومخصصًا سنويًا."

سكت الطّاهر.

أدار ظهره للحظة، ثم قال:

– "هل أتيتم بأنفسكم، أم أُرسلتم لتُسكتوا صدى هذا المكان؟ "

قال آخرهم، وهو يحاول الابتسام:

– "بل جئنا تقديرًا، ونحن نتابع بإعجاب... ما فعلتموه."

اقترب"الطّاهر" من قلب النُّصب، أشار إلى قطعة قماش دامية، ثم إلى صورة محترقة نصفها مفقود، ثم قال:

– "قبل أن تدرجوا هذا المكان في الخرائط...أجيبوني: أين "حكُّوم"؟ أين "الجيلالي"؟ أين الشهيد الذي صرخ "الله أكبر" في نفق وابتلع التراب صوته؟ هل وردوا في دفاتركم؟ "

سكت الجميع.

فقال"الطّاهر" بهدوءٍ يشبه العاصفة المؤجلة:

– "أنا لا أمانع أن يُسجَّل هذا المكان في خرائطكم، لكن بشرط...واحد فقط:

أن تُنقش هنا أسماء من لم تُكتب لهم جنازة، أن تُرسل لجنة لا لتصويرنا، بل لتسمع من الأمَّهات، وتحفر أسماء من ظلّوا في الدموع، لا في الصحف."

قال المسؤول الأول، وقد بدا عليه الارتباك:

– "هذا صعب، فالتوثيق التاريخي يحتاج إثباتات رسمية، وشهادات معتمدة..."

قاطعه الطّاهر:

– "الدم لا يُوثّق، بل يُشتم. والأم التي حفظت ابنها في قميص، أصدق من كل أرشيف."

ثم اقترب منهم وقال:

– "هذا المكان ليس لكم...هو للأمّ التي ما زالت تمسح التراب عند الفجر، وللرجل الذي عاد من النفي ولم يجد قبرًا لأخيه. هو للمجاهد الذي طُرد من وطنه لأنه قاتل قبلهم."

ثم أمسك دفتره وقرأ بصوتٍ عالٍ:

"**هنا يرقد الذين رفضتهم دفاتر الدولة، وقبلتهم صفحات السماء.**"

في النهاية، غادر الوفد. لم يكتبوا شيئًا. ولم يعد أحد.

لكن الناس...استمروا في القدوم.

وفي اللّيل، كتب"الطّاهر" في دفتره:

"**كل حجرٍ وضعناه هنا، وُضع ليرفض أن يتحول الشهداء إلى مادة في نشرات الأخبار.**"

"من أراد أن يُكرّمهم...فليأتِ بحقيبته، وليقضِ ليلته عند هذا النّصب، ثم ليسأل التراب: من دفنكم، ولم يذكر أسماءكم؟ "

"الولد الذي كان يرسم القبور... صار حافظ الذاكرة"

بعد طول غياب، قرر"الطّاهر" أن يعود إلى قريته القديمة، حيث أوّل دمعة، وأوّل حجر، وأول قُبلة ودّع بها أمّه قبل أن تصعد روحها إلى بارئها دون وداع..

سار على قدميه، كما فعل قبل خمس وعشرين سنة، ذات الخطى، لكن التراب... تغيّر. الطريق التي كانت تمر بين زقاقين طينيين، أصبحت الآن محاطة بسياج من إسمنت بارد، والمسجد...صار أصغر مما كان عليه في ذاكرته، أو ربما قلبه كبر.

عند مدخل القرية، مرّ بجدارٍ متهالك، عليه رسم فحمي باهت: ولدٌ صغير يرسم قبرًا بقلمٍ قصير.

تجمّد الطّاهر.

تذّكره. تذكر ذلك الطفل...الذي كان يرسم على الجدران أسماء الشهداء، ثم يُحاصرهم بصمتٍ من الدعاء والسكوت.

تقدّم من السوق، كان كل شيء هادئًا، لكن عيون الناس كأنَّها لا تراه.

ربّما نسوه. أو ربّما لم يعرفوه قطّ.

حتى سمع صوت شابّ خلفه:

– "سي الطّاهر...؟ "

استدار.

رآه. رجل تجاوز الثلاثين، بوجهٍ نحيل وابتسامة رصينة. يحمل دفترًا جلديًا، يشبه دفتره القديم.

قال له:

– "أنا إبراهيم... كنت أرســم القبور على الجدران. أتذكُر؟ قالوا إنّك ميّت، لكنّي لم أصدّق."

ابتسم الطّاهر.

– "وأنت... لم تكبر؟ "

ردّ الشاب:

– "بل كبرت على أن يُنسى من ماتوا. فجمعت أسماء من لم يجدهم أحد، ومنهم: "الجيلالي"، زليخة، "حكُّوم"..."

هزّ "الطّاهر" رأسه في صمت عميق.

– "وهل تعرفهم؟ "

قال إبراهيم:

– "أعرفهم من دفترك...الذي نُســـخ ووزّع ســـرًّا بين أطفال القرى، كأنَّه مصحف آخر من سورة الدم."

ثم فتح دفتره، وأراه الصفحة الأولى:

"**هذه ذاكرة الطّاهر...نُعيد كتابتها لا من أجله، بل من أجل الذين قد يُنكرون بعده. لأن الوطن إن لم يُكتَب بقلم من عاش الجوع، سـيُكتَب بيد من عاش البروتوكول.**"

دمعت عينا الطّاهر.

قال له:

– "سلمته لك قبل أن أعلم أنّي فعلت."

رد إبراهيم:

– "ومن ينقش الأســـماء على الحجارة...يكون قد ســـلّم ذاكرته لكل من يستطيع أن يقرأها بصدره، لا بعينيه."

وفي آخر اللّيل، جلس"الطّاهر" على عتبة بيته المهدم، بجواره إبراهيم. لا كلام كثير، فقط دفاتر تُفتح، وحجارة تُقرأ، ودعاء يُرفع من صـــدر رجلٍ بدأ الحكاية، وآخر...سيواصلها حتى آخر رمادٍ يُغسل بالمطر.

كتب"الطّاهر" في دفتره، ربما للمرة الأخيرة:

"**لم أعد أخاف النســيان، لأن هناك من يتذكّر دون أن نطلب منه. من يكتب، لا ليظهر...بل لأن من لم يُكتَبوا بعد، يســتحقّون منّا أكثر من الصَّمت .**"

"**هذا الفجر، يعرف الآن بعض الأســماء. وذاك الذي لا يُنادى عليه، سيُبعث بإذن ربه، وفي صدره: الله أكبر من أن تُنسى دماؤنا.**"

"الدفتر الذي تُرك مفتوحًا فوق الحجارة"

في صباحٍ رمادي، كان"الطّاهر" واقفًا وحده عند النُّصب..

لا أحد حوله، وحدها الرّيح تمرّ كأنَّها تقرأ آخر صفحة..

فتح دفتـــره العتيق، قلب صفحاته ببطء، قرأ أسماءً كانت نُقشت بالدّم، ووجوهًا رسمها الوجع قبل الفحم.

أخذ نفسًا طويلًا...ثم أخرج ورقة خالية. كتب فيها:

"**إلى من يجيئون بعدي...لا تبحثوا عنّي. فكل من ذكر اسمه هنا... هو أنا.**"

"**إن كانت قبوركم لا تحمل أسماء، فإنّ هذا الدفتر... حمل قلوبنا.**"

"**وداعًا يا دمًا لم يُغسل... لكنه طهّرنا.**"

ثم طوى الدفتر، ووضعه على حجارة النُّصب.. ربطه بقطعة قماش كان يلفّ بها يده حين يصعد الجبل..

وضع فوقه حفنة تراب، وبجوارها حجر صغير كتب عليه:

"ليس كاتبًا...بل شاهِدًا من بقايا الذين لم تُقرأ أسماؤهم في الجنازات."

من بعيد، كان إبراهيم يراقب المشـهد، لم يُنبهه، لم ينادِه، كأنَّه علم أن هذا المشهد **لا يحتاج حضورًا... بل تفهمًا..**

مشـى"الطّاهر" مبتعدًا، لا شـيء في ظهره إلا ظلال الجبال، وصـدى لم يُطفأ من أصوات التكبير التي كانت تُقال في الهجوم الأخير..

وبعد سـاعات...وجد إبراهيم الدفتر، فتحه ببطء، فقرأ آخر سـطر، كُتب بالحبر الأحمر:

"إذا سـألتم عنّي...فاسـألوا عن أسـماء من لم تُكتَب. فإن وجدتموهم، فاعلموا أنني بينكم."

وهكذا...أُغلق بابٌ، وبقي آخر مفتوحًا من أجل ذاكرة شعبٍ لا تنسى: أن الاسـتعمار قد عمَّر في هذه البلاد وأكثر فيها الفسـاد؛ فكانت عاقبته إلى زوال وخراب..إنَّ ربّك لبالمرصاد..

فهرس المحتويات

✍ هذه الرواية : "في ظلّ الثورة"

في **ظلّ الثورة** ليست رواية عن الأبطال... بل عن الذين لم يُذكروا حين ذُكروا. هي رحلة في ذاكرة وطن وُلد تحت القصف، وتربّى على الجوع، ثم اختنق صوته وسط الهتافات التي لم تنطق باسمه.

في قلب الرواية، يقف "الطّاهر" — طفل يولد وسط وميض المدافع، ثم ينمو ليصبح حامل دفترٍ لا يُسجّل نفسه، بل يطارد فيه أسماء الشهداء المنسيين، أولئك الذين سقطوا دون أن تلتفت إليهم جوقة الدولة ولا عدسات الإعلام.

من رياح الولادة إلى مدرسة الكهف، ومن مجاعة 1945 إلى أول طلقة، تمضي الرواية في خط تصاعدي من الجرح، ثم تتكسر عند مفترق الذاكرة: حين يُنحّى المجاهد، ويُستبدل بالحاضر في الصورة.

لكن"الطّاهر" لا يثور... بل يكتب. . ويترك دفتره في نصبٍ صغيرٍ على سفح جبل، لكل من لم يجدوا أسماءهم على لافتات الشوارع...فهم: " فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ " .